مواقف فرح فيها الرسول ﷺ

شعبان أحمد دياب

تقديم ومراجعة

د. حامد بن أحمد الطاهر البسيوني



الطبعة الأولى :
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

رقم الإيداع: ٧٦٧١ / ٢٠٠٧

الناشر
مكتبة الأصولي دمنهور
☎ ٠٤٥٣٣١١١٣٨ - ٠١٠٥٤٠١٣٢٤
دمنهور - خلف عمر أفندي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد للّه رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ؛ وبعد :

لقد أفسحت الشريعة الإسلامية للنَّفْس المُسلمة أن تسعد وتفرح وتهنأ وتطمئن ، ولكن داخل بوتقة دينية مزهرة في روضة غَنَّاء ، فجاءت أعياد المسلمين كعيد الفطر وعيد الأضحى وعيد نهاية الأسبوع الجمعة مصدرًا للبِشْرِ والسرور ، وما حرَّجَت على المسلم البسمة وضيقت عليه فرحته ، بل ضبطت جميع انفعالاته بما يُناسب هذا الشرعَ الحنيفَ ، وجعلت فرحةَ المسلم فرحةً هادفةً ، ولم تفتح مجالًا لفرحة بمعصية ، بل حتى أوقات الفرح والسرور فيه ما فيه من فوائد .

قال زيد بن عبد العزيز الفياض في سرور العيد وفرحته : العيد كلمة عذبة على اللسان ، مطربة للفؤاد ، طعمها حلو ونكهتها شذيَّة ، يترقب الناس العيد بشوق ولهفة ، وينتظرون قدومه انتظار الأب لفلذة كبده الذي نأت به الدِّيار ، ويتطلعون إليه تطلع الأم الوالِهَة لنجلها الذي شَطَّ[١] مزاره ، ويفرحون بأوبته فرحةَ مَنْ أضناه[٢] الفراق لِلُقْيَا حبيب . ويمتلئ القلب نشوةً وفرحًا ، وتهتز النفس حبورًا وجذلًا[٣] ، الكل تبرق أساريره وتغمر البهجة محياه ، ولا عجب ففي العيد ميدان للمكارم وإظهار لنبل المشاعر ، ولقاءات ذاخرة

---

(١) بَعُدَ .

(٢) أتعبه وأنهكه .

(٣) جذلا : فرحًا .

بالحب والتسامح وتقوية للوشائج والأواصر ، الْغَنِيُّ يجود بما أفاءَ اللَّهُ عليه ، ويمنح بسخاء من فضول ما لديه ؛ لأنه يريد أن يكون إخوانه جميعًا يشاطرونه السَّرَّاءَ ، ويبادلونه الفرحة الباسمة ويشعرون بما لهذا اليوم من معنى سام ومظهر خلاب ، وبهذا تعمر الطمأنينة النفوس وتدرك حكمة اللَّه العلي القدير الذي أراد من البَشَرِ الطهر والنقاء والإخلاص والصفاء ليعملوا وفق مرضاة ربهم في تعاون وتآزر وتعاضد وتساند وليكوِّنوا مجتمعًا راقيًا ترفرف عليه راية التوحيد ويرتفع إلى أوج العُلا ويرنو إلى المجد والرُّقي يسيرون صفًّا واحِدًا كأنهم بنيان مرصوص ، الْقَوِيُّ يَحْنُو على الضعيف والغني يساعد الفقير والكبير يرحم الصَّغِيرَ ، والحدث يتأدب مع من هو أكبرُ منه سِنًّا في مجتمع لا تهدر فيه الكفاءات ولا تغمط فيه الحقوق ، ولا يكون للاستخفاف فيه منفذ ، ولا للتعالي فيه طريق ، بل أمة واحدة يُظَلِّلُها عَلَمُ الإسلام السامق ، ويشدُّها إلى بعضٍ آصِرَةُ الدِّينَ والعقيدة وروابط من القُربى والتراث[1] .

ولو تجولت في مواقف ضحك فيها النبي ﷺ وضحك فيها أصحابه ، لعلمت أن من يَسِمُونَ هذا الدِّين بالتزمُّتِ والتشدد والجفاء في بُعْدٍ شديدٍ عن مُدارسةِ هذا الدِّينِ وما ورَد فيه ، بل كان النبي ﷺ يبتسم ويضحك ويُسَرُّ ويفرح ، ويُشاركه أصحابه هذا السرور والفرح ، وتختلف أسباب ذلك من حَدَثٍ لآخر ، فَأَقْبِلْ مُبتسمًا معي لكي نتعرف على : متى وكيف وأين تبسم النبي ﷺ وأصحابه .

(١) الأدب العربي : روعة العيد لزيد الفياض ص (١٠٨ ، ١٠٩) .

فرحة وبسمة تريح الفؤاد

ورد ذكر الفرح في القرآن والسنة وعلى ألسنة الصحابة والتابعين وغيرهم ، وقد ورد في القرآن على وجهتين :

[١] فرح بالطاعة قال تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس :٥٨] . وهذه عندما بلغ أبيًّا رضي اللَّه عنه أن اللَّه سماه باسمه في الملأ ، وأمره النبي أن يقرأ عليه سورة البينة ، فليفرح المرء بطاعته وبره وإحسانه ، ولا يصاب بعُجْب ولا كبر للتحذير من هذا الفرح من النوع .

[٢] ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص :٧٦] . وقال تعالى : ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود :١٠] .

فأفراح أهل الإيمان : ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران :١٧٠] ، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد :٣٦] ، ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة :١٢٤] .

والبشرى السارة مفرحة للقلب ، قال تعالى : ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس : ٦٤] . وفي الحديث الصحيح عن عُبادة بن الصامت رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ : « هي الرُّؤيا الصالحةُ ، يراها المسلمُ أو تُرى له »[١] .

قال ابن عباس : « بشرى الحياة الدنيا » هي عند الموت تأتيهم ملائكة

(١) مسلم (٤٧٩) ، وأبو داود (٨٧٦) .

الرحمة بالبشرى من اللّه ، وفي الآخرة عند خروج نفس المؤمن إذا خرجت يعرجون بها إلى اللّه تزف كما تزف العروس ، تبشر برضوان اللّه .

وقال الحسن : هي الجنة . وقيل بشرى الدنيا بالثناء الحسن يجري له على ألسنة الناس ، وكله صحيح فقد قال تعالى : ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة : ٢٥] . وقال : ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت : ٣٠] .

وأفراح الكافر أحزان والعياذ باللّه ، قال تعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام : ٤٤] . وما يترتب على الفرح من سرور ورد ذكره فقال تعالى فيمن حوسب يسيرا أنه ينقلب إلى أهله مسرورا .

وقال : ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾[الإنسان : ١١] . وقد يَرِد على وجه الذم ، قال تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الانشقاق : ١٠-١٣] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه اللّه - : في شرح حديث « اللّهمّ طهِّرني بالماءِ ، والثلجِ ، والبَرَدِ »[١] . أي أن يغسل الذنوب على وجه يبرد القلوب ، وأعظم برد يكون بما فيه من الفرح والسرور الذي أزال عنه ما يسوء النفس من الذنوب[٢] .

والاعتدال في السرور والفرح مطلوب أيضا دون إفراط وتفريط ، فالفرح يبسط النفس ، وينسيها عيوبها وآفاتها ونقائصها ؛ إذ لو شهدت ذلك وأبصرته لشغلها ذلك عن الفرح وأيضا فإن الفرح ، بالنعمة قد ينسيه المنعم فيشتغل بالخلعة التي خلعها عليه عنه فيطفح عليه السرور حتى يغيب بنعمته عنه وهنا

---

(١) البخاري (٧٤٤) ، ومسلم (٥٩٨) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٠ / ٦٣٤) ، والزهد والورع والعبادة له (٦٦ ، ٦٧) .

يكون المكر . . . ومما يدل على أن الفرح من أسباب المكر ما لم يقارنه خوف قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام : ٤٤] . وقال قوم قارون له : ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص : ٧٦] . فالفرح متى كان بالله وبما مَنَّ الله به مقارنا للخوف والحذر لم يضر صاحبه ، ومتى خلا عن ذلك ضره ولابد[١] .

وقال الغزالي - رحمه الله - : الفرح بالدنيا سم قاتل يسرى في العروق ، فيخرج من القلب الخوف والحزن ، وذكر الموت وأهوال يوم القيامة ، وهذا هو موت القلب .

قال تعالى : ﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾ [يونس : ٧] . وقال : ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد : ٢٦] . وقال : ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد : ٢٠] . فأولوا الحزم من أرباب القلوب جربوا قلوبهم في حال الفرح بمواتاة الدنيا فوجدوها قاسية نفرة بعيدة التأثر عن ذكر الله واليوم الآخر ، وجربوها في حالة الحزن فوجدوها لينة رقيقة صافية قابلة للذكر . . .

وتوصلوا إلى الحرية والملك الدائم في الدنيا والآخرة بالخلاص من أسر الشهوات ورقها والأُنس بذكر الله - عز وجل - والانشغال بطاعته[٢] .

والمقصود الاقتصاد والاعتدال حسبما رود في الشريعة ، فخير الأمور الوسط ؛ فالبسمة الحانية لها دور ، يقول أحمد أمين في فيض الخاطر : ليس المبتسمون للحياة أسعد حالا لأنفسهم فقط ، بل هم كذلك أقدر على العمل

(١) مدارج السالكين لابن القيم - رحمه الله - (٣ / ١٠٦ - ١٠٩) بتصرف .
(٢) إحياء علوم الدين . بتصرف (٣ / ٦٨) .

وأكثر احتمالا للمسؤولية وأصلح لمواجهة الشدائد ومعالجة الصعاب والإتيان بعظائم الأمور التي تنفعهم وتنفع الناس . ولو خيرت بين مال كثير أو منصب خطير ،وبين نفس راضية باسمة لاخترت الثانية ، فما المال مع العبوس ؟! وما المنصب مع انقباض النفس ؟! وما كل ما في الحياة إذا كان صاحبه ضيقا حرجا كأنه عائد من جنازة حبيب ؟! وما جمال الزوجة إذا عبست وقلبت بيتها جحيما ؟ الخير منها ألف مرة زوجة لم تبلغ مبلغها من الجمال وجعلت بيتها جنة ، ولا قيمة للبسمة الظاهرة إلا إذا كانت منبعثة مما يعتري طبيعة الإنسان من شذوذ . فالزهر باسم والغابات باسمة والبحار والأنهار والسماء والنجوم والطيور كلها باسمة ، وكان الإنسان بطبعه باسما لو لا ما يعرض له من طمع وشر وأنانية تجعله عابسا ، فكان بذلك نشازا في نغمات الطبيعة المنجمة ، ومن أجل هذا لا يرى الجمال من عبست نفسه ، ولا يرى الحقيقة من تدنس قلبه ، فكل إنسان يرى الدنيا من خلال عمله وفكره وبواعثه ، فإذا كان العمل طيبًا والفكر نظيفًا والبواعث طاهرة ، كان منظاره الذي يرى به الدنيا نقيا ، فرأى الدنيا جميلة كما خلقت ، وإلا تغبش منظاره وأسود زجاجه فرأى كل شيء أسود مغبشا ، هناك نفوس تستطيع أن تصنع من كل شيء شقاء ، ونفوس تستطيع أن تصنع من كل شيء سعادة ، هناك المرأة في البيت لا تقع عينها إلا على الخطأ فاليوم أسود ؛ لأن طبقا كسر ولأن نوعا من الطعام زاد الطاهي في ملحه ، أو لأنها عثرت على قطعة من الورق في الحجرة فتهيج وتسب ويتعدى السباب إلى كل من في البيت ، وإذا هو شعلة من نار ، وهناك رجل ينغِّص على نفسه وعلى من حوله من كلمة يسمعها أو يؤولها تأويلا سيئا ، أو من عمل تافة حدث له ، أو حدث منه ، أو من ربح خسره ، أو من ربح كان ينتظره فلم يحدث ، أو نحو ذلك ، فإذا الدنيا كلها سوداء في نظره ، ثم هو يسودها على من حوله .

هؤلاء عندهم قدرة على المبالغة في الشر فيجعلون من الحبة قُبة ، ومن البذرة شجرة ، وليس عندهم قدرة على الخير فلا يفرحون بما أوتوا ولو كثيرًا ، ولا ينعمون بما نالوا ولو عظيمًا .

الحياة فن وفن يُتعلم ، والخير للإنسان أن يَجِدَّ في وضع الأزهار والرياحين والحب في حياته من أن يَجِدَّ في تكديس المال في جيبه ، أو في مصرفه ، ما الحياة إذا وُجِّهتْ كل الجهود فيها لجمع المال ولم يُوجَّه أي جهد لترقية جانب الرحمة والحُبِّ فيها والجمال ؟ !

أكثر الناس لا يفتحون أعينهم لمباهج الحياة ، وإنما يفتحونها للدرهم والدينار يمرون على الحديقة الغناء ، والأزهار الجميلة ، والماء المتدفق والطيور المغردة ، فلا يأبهون لها ، وإنما يأبهون لدينار يدخل ودينار يخرج .

وقد كان الدينار وسيلة للعيشة السعيدة ، فقبلوا الوضع وباعوا العيشة السعيدة من أجل الدينار ، وقد رُكِّبَتْ فينا العيون لنظر الجمال فعوَّدناها ألَّا تنظر إلا إلى الدينار .

ليس يعبِّس النفس والوجه كاليأس ، فإن أردتَ الابتسام فحارب اليأس إن الفرصة سانحة لك وللناس ، والنجاح مفتوح بابه لك وللناس ، فعوِّد عقلك تفتح الأمل ، وتوقع الخير في المستقبل . إذا اعتقدت أنك مخلوق للصغير من الأمور لم تبلغ في الحياة إلَّا الصغير ، وإذا اعتقدت أنك مخلوق لعظائم الأمور شعرت بهمة تكسر الحدود والحواجز وتنفذ منها إلى الساحة الفسيحة والغرض الأسمى ، ومصداق ذلك حادث في الحياة المادية فمن دخل مسابقة مائة متر شعر بالتعب إذا هو قطعها ، ومن دخل مسافة أربعمائة متر لم يشعر بالتعب من المائة والمائتين ؛ فالنفس تعطيك من الهمة بقدر ما تحدد من الغرض ، حدد غرضك وليكن ساميا صعب المنال ، ولكن لا عليك في ذلك

مادمت كل يوم تَخْطُو إليه خُطوا جديدًا .

إنما يصد النفس ويعبسها ويجعلها في سجن مظلم اليأس وفقدان الأمل ، والعيشة السيئة برؤية الشرور والبحث عن معايب الناس ، والتشدق بالحديث عن سيئات العالم : لا غير ، وليس يوفق الإنسان في شيء كما يوفق إلى مُربٍّ ينمي ملكاته الطبيعية ويعادل بينها ويوسع أفقه ويعوده السماحة وسعة الصدر ويعلمه أن خير غرض يسعى إليه أن يكون مصدر خير للناس بقدر ما يستطيع ، وأن تكون نفسه شمسا مشعة للضوء والحب والخير ، وأن يكون قلبه مملوءًا عطفًا وبراً وإنسانية وحبًا ؛ لإيصال الخير لكل من اتصل به .

النفس الباسمة ترى الصعاب فيلذها التغلب عليها ؛ تنظرها فتبتسم ، وتعالجها فتبتسم ، وتتغلب عليها فتبتسم ، والنفس العابسة لا ترى صعابا فتخلفها ، وإذا رأتها أكبرتها واستصغرت همتها وتعللت بلو ، وإذا ، وإن وفا الدهر الذي يلعنه إلا فراجة وتربيته ، إنه يود النجاح في الحياة ولا يريد أن يدفع ثمنه إنه يرى في كل طريق أسدًا رابضًا ، إنه ينتظر حتى تمطر السماء ذهبا أو تنشق الأرض عن كنز .

إن الصعاب في الحياة أمور نسبية ، فكل شيء صعب جدًّا عند النفس الصغيرة جدًّا ، ولا صعوبة عظيمة عند النفس العظيمة ، وبينهما النفس العظيمة تزداد عظمة بمغالبة الصعاب ، إذا بالنفوس الهزيلة تزداد سقمًا بالفرار منها وإنما الصعاب كالكلب العقور إذا رآك خفت منه وجريت نبحك وعدا ورآك وإذا رآك تهزأ به ولا تعيره اهتمامًا وتبرق له عينك أفسح الطريق لك وانكمش في جلده منك ، ثم لا شيء أقتل للنفس من شعورها بضعتها وصغر شأنها وقلة قيمتها ، وأنها لا يمكن أن يصدر عنها عمل عظيم ، ولا ينتظر منها خير كبير ، هذا الشعور بالضعة يفقد الإنسان الثقة بنفسه والإيمان بقوتها ، فإذا أقدم على عمل أرتاب في مقدرته وفي إمكان نجاحه ، وعالجه

بفتور ففشل فيه . الثقة بالنفس فضيلة كبرى عليها عماد النجاح ، في الحياة وشتان بينهما وبين الغرور الذي يعدُ رذيلة ، والفرق بينهما أن الغرور اعتماد النفس على الخيال وعلى الكبر الزائف ، والثقة بالنفس اعتمادها على مقدرتها على تحمل المسؤولية وعلى تقوية ملكاتها وتحسين استعدادها .

يقول إيليا أبو ماضي :

قال : السماءُ كئيبةٌ وتجهَّما ... قلت : ابتسم يكفي التجهُّمُ في السما

قال : الصبا ولي فقلت : له ابتسم ... لن يرجع الأسفُ الصبَّا المتصرِّما

قال : التي كانت سمائي في الهوى ... صارت لنفسي في الغرامِ جهنَّما

خانت عهودي بعدما مَّلكتُها ... قلبي فكيف أُطيقُ أن أتبسَّما

قلت : ابتسم واطرب فلو قارنتها ... قضيت عمرَك كلَّه متألمًا

قال : التجارةُ في صراعٍ هائلٍ ... مثلُ المسافرِ كادَ يقتُله الظَّمَا

أو غادةٌ مسلولةٌ محتاجةٌ ... لدم وتنفث كلما لهثت دما

قلت : ابتسم ما أنت جالبُ دائِها ... وشفائِها ، فإذا ابتسمت فربَّما

أيكونُ غيرُك مجرمًا وتبيتُ في ... وَجَلٍ كأنَّك أنت صِرت المُجرِما ؟

قال : العِدى حولي عَلَتْ صَيَحاتهم ... أأسَرُ والأعداءُ حولي في الحمى

قلتُ : ابتسِم لم يطلبوكَ بذمِّهم ... لو لم تكن مِنهم أجلَّ وأعظما

قال : المواسِمُ قد بدَت أعلامُها ... وتعرضت لي في الملابسِ والدُّمى

وعليّ للأحباب فرضٌ لازِمٌ ... لكنّ كفِّي ليس تملِك دِرهما

قلت : ابتسم يكفيك أنّك لم تَزَلْ ... حيًّا ولست من الأحبَّة معدِما

قال : الليالي جرَّعتني علقما ... قلت : ابتسم ولئن جُرِعْت العلقما

فلعل غيرك ونّما إن رآك ... طرَح الكآبةَ جانبا وترنّما

أتراك تغنم بالتبرُّمِ درهما ... أم أنت تخشَ بالبشاشة مغنما

يا صاحِ لا خطرٌ على شفتيك أن	تتثلما ، والوجه أن يتحطَّما
فاضحَك فإن الشُّهبَ تضحَكُ والد	جى متلاطمٌ ولِذا نحبُّ الأنجما
قال : البشاشة ليس تسود كائنا	يأتي إلى الدنيا ويذهَبُ مرغمًا
قلت : ابتسم مادام بينَك والرَّدى	شِبرٌ فإنك بعدُ لن تبتسَّما

ومع كثرة المنغصات وزيادة المحبطات وارتفاع ظاهرة التشاؤم وضعف التفاؤل أحببنا أن نطوف ونجول في بساتين التبسم والفرح التي اعترى النبي ﷺ في مواقف ، ما فلندلف ، إليها لعلها تدخل السرور على فؤاد مكلوم ، أو قلب جريح ، أو تحرك حزينا ، أو تروي لب عاقل .

لن نعدِم من ربٍّ يضحكُ ويفرحُ خيرًا ، وهو الذي يحب المحسنين الخيرين

صفة الفرح والضحك والمحبة ثابتة للّه سبحانه وتعالى ، ووردت في القرآن والسنة ، فقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وورد في أكثر من حديث صفة الفرح والضحك والمحبة ، ولا يلزم منهم التشبيه بالخلق .

بل أهل السنة مشهور عنهم الإيمان بالصفات التي وردت في القرآن والسنة بلا تعطيل ، ولا تشبيه ، ولا تحريف ، ولا تمثيل ، لقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ . وورد الحب في القرآن بمعنى الود ، قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ . وعند البخاري من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه أن النبي ﷺ قال : «إذا أحبَّ اللّهُ العبدَ نادى جبريلُ إنَّ اللّهُ يحبّ فلانًا فأحبَّهَ ، فيحبُّه جبريلُ ، فينادي جبريلُ في أهلِ السماءِ ، إن اللّهَ يحِبُّ فلانًا فأحبُّوه ، فيحبُّه أهلُ السماءِ ، ثم يوضَعُ له القَبولُ في الأرضِ»[1] .

قال ابن القيم - رحمه اللّه - في اسمه الودود : وأما الودود ففيه قولان : أحدهما أنه بمعنى فاعل وهو الذي يحب أنبيائه ورسله وأوليائه وعباده المؤمنين ، والثاني : أنه بمعنى مودود وهو المحبوب الذي يستحق أن يُحَبَّ الحبَّ كله ، وأن يكون أحب إلى العبد من سمعه وبصره وجميع محبوباته[2] .

---

(١) البخاري في بدء الخلق ، وانظر البنوات لابن تيمية ص (٧٦) .

(٢) جلاء الأفهام لابن القيم - رحمه الله - وهذا عن الأسماء الحسنى للدكتور / محمود عبدالرزاق ص (٤٩٣ ، ٤٩٤) .

وفي حديث أنس بن مالك قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « للَّهُ أشدُّ فرحًا بتوبةِ عبدِه حينَ يتوبُ إليه ، من أحدِكم كان على راحلتِه بأرضِ فلاةٍ ، فانفلتَت منه وعَليها طعامُه وشرابه ، فأيس منها فأتى شجرةً فاضطجَع في ظلها قد أيس من راحلته ، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمًا عندَه ، فأخذَ بخطامِها ثم قال من شدَّةِ الفرحِ : اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ ، أَخْطَأَ مِن شِدَّةِ الْفَرَحِ »[1] .

في رواية ابن مسعود قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « للَّه أشدُّ فرحًا بتوبةِ عبدِه المؤمنِ من رجلٍ في أرضٍ دوريَّةٍ مهلكةٍ ، معه راحلتُه ، عليها طعامَه وشرابُه ، فنام فاستيقَظ وقد ذهبَت ، فطَلبها حتّى أدرَكه العطشُ ، ثم قال : أرجعُ إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموتَ ، فوضَع رأسَه على ساعِده ليموتَ ، فاستيقَظ وعندَه راحلتُه وعليها زادُه وطعامُه وشرابُه ، فاللَّهُ أشدُّ فرحًا بتوبةِ العبدِ المؤمنِ مِن هذا براحلتِه وزادِه »[2] .

وأما الذين قاموا بتأويل صفات اللَّه ومنها الضحك والمحبة فلم يوفقوا للصواب ، وإن كانوا رحمهم اللَّه من جهابذة أهل العلم .

قال الشيخ علي بن عبد العزيز الشبل في التنبيه على المخالفات العقدية في فتح الباري بعدما نقل كلام الحافظ بن حجر - رحمه اللَّه - في الفتح (٦/ ٤٨) في قول النبي ﷺ : « يضحَكُ اللَّهُ إلى رجلين » وأنها بمعنى الرضا والقبول وغيره . . . بأن هذا الكلام وما بعده غير صحيح (أي التأويل) ؛ لأن مذهب أهل التأويل ومذهب أهل التفويض باطل ، ونفي الضحك عن اللَّه واعتبار نصوصه المثبتة له من ضرب المثل وتأويله بصفة أخرى كالرضا ، أو إرادته ليس بسديد ، بل هو نفي لحقيقة ما وصف النبي ﷺ ربه ، فالواجب إثبات صفة الضحك للَّه على الوجه اللائق به من غير تشبيه بضحك

---

(١) مسلم (٢٧٤٧) ، وهذا لفظه ، وبنحوه عند البخاري (٦٣٠٩) .

(٢) مسلم (٢٧٤٤) ، والبيهقي (٢٠٥٥٦٠) .

المخلوقات ، ولا تعطيل لحقيقة ما له سبحانه من كمال الصفات ، ولا تكييف ، ولا تحريف ، هذا ولم أر البخاري - رحمه اللَّه - تأول ذلك وهو بعيد جدًّا عنه لا سيما وقد قال الحافظ - رحمه اللَّه - على حديث (٤٨٨٩) من كتاب التفسير : قال الخطابي : وقال أبو عبد اللَّه : معنى الضحك هنا الرحمة . قلت : ولم أر ذلك في النسخ التي وقعت لنا من البخاري . واللَّه أَعْلَم[١] .

وقال الشيخ على الشبل أيضا عندما نقل كلام الحافظ ابن حجر - رحمه اللَّه - عند الكلام عن الخلة (٦ / ٤٤٨) أنها على سبيل المقابلة فرده بقوله : إطلاق الخلة وهي أعلى درجات المحبة على اللَّه صحيح ، وعلى الحقيقة اللائقة باللَّه كما في صريح القرآن والسنة ، وهي صفة ثابتة لائقة باللَّه لا تستلزم تشبيها ولا تمثيلا ، بل للَّه خلة لائقة به كما أن له سمعًا وبصرًا وحياة تليق به ، ونفي الخلة عن اللَّه هو قول الجهمية عن جعد بن درهم كما قال ابن القيم - رحمه اللَّه - .

ولأجلِ ذا ضحّى بجعدٍ خالدُ الـ قـسـري يـومَ ذبـائـحِ الـقـربـانِ
إذ قـالَ إبـراهيـمُ لـيسَ خـليـلَه كلا ولا موسى الكليمُ الداني
شُكر الضحية كلُّ صاحبِ سنَّةٍ لـلَّـه درك مـن أخـي قـربـانِ[٢]

وقد جمع ابن القيم - رحمه اللَّه - الكلام في هذا فقال : اللَّه سبحانه يحب التائب ويفرح بتوبته أعظم فرح ، وقد تقرر أن الجزاء من جنس العمل ، فلا نيسى الفرحة التي يظفر بها عند التوبة النصوح ، وتأمل كيف تجد القلب يرقص فرحًا ، وأنت لا تدري بسبب ذلك الفرح ما هو ؟ وهذا أمر لا يحس به

(١) التنبيه على المخالفات العقدية لعلي الشبل بتقريظ مجموعة من العلماء ؛ منهم ابن باز رحمه الله .

(٢) التنبيه على المخالفات العقدية علي الشيل بتقريظ مجموعة من العلماء ص (٤٧) .

إلا حي القلب ، وأما ميت القلب فإنما يجد الفرح عند ظفره بالذنب ولا يعرف فرحًا غيره ، فوازن إذًا بين هذين الفرحين ، وانظر ما يعقبه فرح الظفر بالذنب من أنواع الأحزان والهموم والغموم والمصائب ، فمن يشتري فرحة ساعة بغم الأبد ؟ وانظر ما يعقبه فرح الظفر بالطاعة والتوبة النصوح من الانشراح الدائم والنعيم وطيب العيش ، ووازن بين هذا هذا ، ثم اختر ما يليق بك ويناسبك وكل يعمل على شاكلته ، وكل امرئ يصبو إلى ما يناسبه[١] .

استقبل الخير والنعم بالشكر

كان النبي ﷺ يؤدي للّٰه حق شكر النعمة حتى لما ذكرت له عائشة طول قيامه كما ورد في البخاري حتى تتورم قدماه فقال : « يا عائشة أفلا أكونُ عبدًا شكورًا » . والعبد لابد أن تؤثره نعم اللّٰه فيتحرك قلبه سرورًا بها ، فيقابل هذا بالشكر كما كان النبي ﷺ يفعل .

عن أبي بكرة أن النبي ﷺ أتاه أمر فسر به فخر للّٰه ساجدًا[٢] .

وأخرجه الحاكم عن أبي بكرة رضي اللّٰه تعالى عنه بلفظ : أن النبي ﷺ أتاه بشير يبشره بظفر خيل له ، ورأسه في حجر عائشة رضي اللّٰه تعالى عنها ، فقام فخر للّٰه ساجدًا ، فلما انصرف أنشأ يسأل الرسول فحدثه ، فكان فيما حدثه من أمر العدو وكانت تليهم امرأةٌ .

فقال النبي ﷺ : « هلَكَتِ الرِّجَالُ حينَ أَطاعَتِ النِّساءُ »[٣] .

---

(١) مفتاح دار السعادة (١ / ٢٩٤) .

(٢) الترمذي بسند حسن (١٥٧٨) .

(٣) الحاكم (٤ / ٢٩١) ، وقال : حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه ، وشاهده صحيح على شرط الشيخين .

لا تكلف نفسك ما لا تطيق

روى عبد اللَّه بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ لما حاصر أهل الطائف ولم يقدر منهم قال : « إنا قافلون غدًا إن شاء اللَّه » .

فكأن المسلمين كرهوا ذلك ، وقالوا : نرجع ولم نفتتحه ؟ !

فقال : « اغدوا » .

فغدوا على القتال فأصابهم جراح ؛ فقال رسول اللَّه ﷺ :

« إنا قافلون غدًا إن شاء اللَّه » .

فسر المسلمون ؛ فضحك رسول اللَّه ﷺ[1] .

ومن فقه الشريعة الغراء عدم التكليف إلا بمقدور ومستطاع ، وكما قال النبي ﷺ : « إنَّ هذا الدينَ يُسرٌ » . وقال : « بعثتُ بالحنيفِيَّةِ السمحةِ » . والذين شددوا على أنفسهم ما استطاعوا المواصلة في طريق الطاعة ، بل كلفوا أنفسهم ما لا يطيقون ، وأصحاب النبي ﷺ كان يعز عليهم الرجوع دون تحقيق نصرٍ للَّه ولدينهِ فساءهم الاقتطاع دون فتح هذا الحصن ، ولكن كان رأى النبي ﷺ هو الصواب فسعد لما رأى منهم ذلك في المرة الثانية .

أسعد بمكر اللَّه بالكافرين

قد يقيض اللَّه لهذا الدين من يكون سببًا في غيظ قلوب الكفار وزيادة خزيهم ، واللَّه سبحانه وتعالى له في خلقه شئون ولتفرح بما يقدره اللَّه تعالى .

---

(١) البخاري (٤٣٦٥) ، ومسلم (١٧٧٨) .

عَسَى فَرْجٌ يَكُونُ عَسَى ... نُعَلِّلُ نَفْسَنَا بِعَسَى
فَلَا تَقْنَطْ وَإِنْ لَاقَيْـ ... ـتَ هـمًّا يَقْبِضُ النَّفْسَا
فَأَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْمَرْ ... ءُ مِنْ فَرَجٍ إِذَا يَئِسَا

وتدبر معي هذا الموقف لكي تسعد بمكر اللّه بالكافرين .

عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه قال : لما افتتح رسول اللّه ﷺ خيبر قال الحجاج بن علاط : يا رسول اللّه إن لي بمكة مالا ، وإن لي بها أهلًا ، وإني أريد أن آتيهم فأنا في حل إن أنا نلت منك أو قلت شيئا ؟ فأذن له رسول ﷺ أن يقول ما شاء ، فأتى امرأته حين قدم فقال : أجمعي لي ما كان عندك ، فإني أريد أن أشتري من غنائم محمد ﷺ وأصحابه ، فإنهم قد استبيحوا وأصيبت أموالهم .

قال : ففشا ذلك في مكة ، وانقمع المسلمون ، وأظهر المشركون فرحًا وسرورًا . قال : وبلغ الخبر العباس فعقر ، وجعل لا يستطيع أن يقوم . فأرسل غلاما إلى الحجاج بن علاط : ويلك ما جئت به ؟ وما تقول ؟ ! فما وعد اللّه خير مما جئت به .

وفي رواية : وسمع بذلك العباس بن عبد المطلب فانجزل ظهره فلم يستطع القيام ، فدعا غلامًا له يقال له أبو زبيبة ، فقال : اذهب إلى الحجاج فقل : يقول لك العباس : اللّه أعلى وأجل من أن يكون الذي تخبره حقا ! فجاءه ، فقال الحجاج لغلامه : اقرأ على أبي الفضل السلام ، وقل لأبي الفضل : أخلني في بعض بيوتك حتى آتيك ظهرا ببعض ما تحب ، واكتم عني .

فجاء غلامه فلما بلغ باب الدار قال : أبشر يا أبا الفضل ، فوثب العباس فرحًا حتى قبل بين عينيه ، فأخبره ما قال الحجاج ، فأعتقه ، ثم جاءه الحجاج فأخبره أن رسول اللّه ﷺ قد افتتح خير ، وغنم أموالهم ، وجرت

سهام اللَّه - عز وجل - في أموالهم ، واصطفى رسول اللَّه ﷺ صفية بنت حيي فاتخذها لنفسه ، وخيرها أن يعتقها وتكون زوجته ، أو تلحق بأهلها ، فاختارت أن تعتقها وتكون زوجته ، ولكني جئت لمال كان لي ههنا أردت أن أجمعه فأذهب به ، فاستأذنت رسول اللَّه ﷺ ، فأذن لي أن أقول ما شئت ، فأخف عني ثلاثا ، ثم اذكر ما بدا لك .

قال : فجمعت امرأته ما كان عندها من حلي ومتاع فجمعته فدفعته إليه ، ثم استمر به ، فلما كان بعد ثلاث أتى العباس امرأة الحجاج فقال : ما فعل زوجك ؟ فأخبرته أنه قد ذهب يوم كذا وكذا ، وقالت : لا يخزيك اللَّه يا أبا الفضل ، ولقد شق علينا الذي بلغك . قال : أجل لا يخزني اللَّه ، ولم يكن بحمد اللَّه إلا ما أحببنا فتح اللَّه خيبر على رسوله ﷺ ،وجرت فيها سهام اللَّه ، واصطفى رسول اللَّه ﷺ صفية بنت حيي لنفسه ، فإن كانت لك حاجة في زوجك فالحقي به . قالت : أظنك واللَّه صادقا ، قال : فإن صادق ، والأمر على ما أخبرتك .

وفي رواية ابن سعد : فلما خرج الحجاج أعلن بذلك العباس وأظهر السرور وأعتق غلاما يقال له أبو زبيبة .

فذهب العباس حتى أتى مجالس قريش ، وهم يقولون إذا مر بهم : لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل ! .

فقال لهم : لم يصبني إلا خير بحمد اللَّه ، قد أخبرني الحجاج بن علاط أن خيبر قد فتحها اللَّه على رسوله ، وجرت فيها سهام اللَّه ، واصطفى صفية لنفسه ، وقد سألني أن أخفي عليه ثلاثا ، وإنما جاء ليأخذ ماله وما كان له من شيء ههنا ثم يذهب .

قال : فرد اللَّه الكآبة التي كانت بالمسلمين على المشركين ، وخرج المسلمون ومن كان دخل بيته مكتئبا حتى أتوا العباس ، فأخبرهم الخبر فسر

المسلمون ، ورد اللَّه - يعني : ما كان من كآبة أو غيظ أو حزن - على المشركين .

وفي رواية : ثم انصرف العباس إلى المسجد ، وقريش يتحدثون بحديث الحجاج ابن علاط ، فقال العباس : كلا والذي حلفتم به ، لقد افتتح رسول اللَّه خيبر وترك عروسًا على ابنة حيي بن أخطب ، فضرب أعناك بين أبي الحقيق البيض الجعاد الذين رأيتموهم سادة النضير من يثرب وخيبر ، وهرب الحجاج بماله الذى عند امرأته .

قالوا : ما أخبرك هذا ؟

قال : الصادق في نفسي ، الثقة في صدري : الحجاج . فابعثوا إلى أهله .

فبعثوا فوجدوا الحجاج قد انطلق بماله ، ووجدوا كل ما قال لهم العباس حقا فكُبِت المشركون وفرح المسلمون ، ولم تلبث قريش خمسة أيام حتى جاءهم الخبر بذلك كله[1] .

---

(١) أحمد (٣ / ١٣٨) ، والنسائي (٨٦٤٦) ، والبيهقي (١٨٢٣٥) ، والطبقات (٢ / ١٠٨) ، وفي مجمع الزوائد (١٠٢١٠) قال : رواه أحمد ، وأبو يعلى والبزار والطبراني ، ورجاله رجال الصحيح .

حب وإخاء ومودة

قال الإمام الشافعي - رحمه اللَّه - للدنيا لا تسع متباغضين ، ولثقب الإبرة يسع المتحابين .

والحب على الطاعة من سمات القلوب الخيرة والمتآلفة ، وأخ صدق قل وجوده برغم مكانة هذه الأخوة الصادقة ، وكما قال بعض العلماء : إذا كانت الأخوة من غير إيمان فهي أخوة مصالح دنيوية ، وإذا كان الإيمان من غير أخوة فهو إيمان ناقص قال تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات : ١٠] .

إني وإن كنت امرءًا متباعدًا عن صاحبي في أرضِه وسمائِه

لمفيدُه نصري وكاشِفُ كربِه ومجيب دعوتِه وصوتُ ندائِه

وإذا ارتدى ثوبًا جميلًا لم أقل ياليت أن عليّ فضَل كسائِه

وهذه الفرحة تشدها في الحديث :

عبد الرحمن بن غنم أن أبا مالك الأشعري جمع قومه فقال : يا معشر الأشعريين اجتمعوا واجمعوا نساءكم وأبناءكم أعلمكم صلاة النبي ﷺ ، صلّى لنا بالمدينة .

فاجتمعوا وجمعوا نساءهم وأبناءهم ؛ فتوضأ وأراهم كيف يتوضأ ، فأحصى الوضوء إلى أماكنه ، حتى لما أفاء الفيء وانكسر الظل قام فأذن ، فصف الرجال في أدني الصف ، وصف الولدان في خلفهم ،وصف النساء خلف الولدان ، ثم أقام الصلاة ، فتقدم فرفع يديه فكبر ، فقرأ بفاتحة الكتاب وسورة يُسِرُّهِما ، ثم كبر فركع فقال : سبحان اللَّه وبحمده ثلاث مرار ، ثم قال : سمع اللَّه لمن حمده ، واستوى قائما ، ثم كبر وخر ساجدا ، ثم كبر فرفع رأسه ، ثم كبر فسجد ، ثم كبر فانتهض قائما ؛ فكان تكبيره في أول ركعة ست وتكبيرات ، وكبر حين قام إلى الركعة الثانية فلما قضى صلاته أقبل

إلى قومه بوجهه فقال : احفظوا تكبيري ، وتعلموا ركوعي وسجودي ، فإنها صلاة رسول اللَّه ﷺ التي كان يصلي لنا كذا الساعة من النهار ، ثم إن رسول اللَّه ﷺ لما قضى صلاته أقبل إلى الناس بوجهه فقال :

« يا أيّها الناسُ اسمعوا واعقِلوا ، واعلَموا أنَّ للَّهِ - عز وجل - عبادًا ليسوا بأنبياءَ ولا شهداءَ ، يغبطهم الأنبياءُ والشهداءُ على مجالِسِهم وقربِهم مِن اللَّهِ » .

فجاء رجل من الأعراب من قاصية الناس وألون بيده إلى نبي اللَّه فقال : يا نبى اللَّه ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من اللَّه ؟ ! انعتهم لنا - يعني صفهم لنا - فسر وجه رسول اللَّه ﷺ لسؤال الأعرابي ، فقال رسول اللَّه ﷺ :

« هم ناسٌ من أفناءِ الناسِ ونوازِعُ القبائِلِ لم تصل بينهم أرحامٌ متقاربةٌ ، تحابّوا في اللَّه وتصافوا ، ويضع اللَّه لهم يوم القيامة منابرَ مِن نورٍ ، فيجلسَهم عليها ، فيجعل وجوههم نورا وثيابهم نورا ، يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزَعون ، وهم أولياءَ اللَّهِ الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزَنون »[1] .

(١) أحمد (٥ / ٣٤٣) ، وفي مجمع الزوائد (١٧٩٩٦) وقال : رجاله وثقوا .

اختيار واختبار

قد تختلط في حياة الرجل والمرأة اختياره والاختبار ، فلا يحسب أن وراء هذا الاختيار اختبارًا ، ولا يتفطن لهذا إلا العقلاء أو العاقلات ، وربما يكون الاختيار صعبا عند بعض النفوس ، لكن الذي يفكر بعقل الآخرة سرعان ما ينتهي الصراع النفسي بحسمه لصالح الآخرة ، ففي هذا مرضاة اللّٰه سبحانه ومن ذاك :

عن عائشة قالت : أتاني رسول اللّٰه ﷺ فقال :

« إنّي سأعرِضُ عليك أمرًا ، فلا عَليك أن لا تَعجلي فيه حتّى تشاوري أبويكِ » .

فقلت : وما هذا الأمر ؟

قالت : فتلا علي : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب : ٢٨، ٢٩] .

قالت عائشة فقلت : وفي أي ذلك تأمرني أشاور أبوي ؟ ؛ بل أريد اللّٰه ورسوله والدار الآخرة .

قالت : فسر بذلك النبي ﷺ وأعجبه ، وقال :

« سأعِرضُ على صواحبِك ما عرضتُ عَليك » .

قالت فقلت له : فلا تخبرهن بالذي اخترت ، فلم يفعل ، وكان يقول لهن كما قال لعائشة ، ثم يقول :

« قد اختارت عائشةُ اللّٰهَ ورسولَه والدارَ الآخرة » .

قالت عائشة : قد خيرنا رسول اللَّه ﷺ فلم نر ذلك طلاقًا[١] .

وفي رواية لأحمد : عن عائشة قالت : لما نزلت آية الخيار دعاني رسول اللَّه ﷺ فقال :

« يا عائشةُ إني أريدُ أن أَذْكُر أمرًا ، فلا تقضينَ فيه شيئًا دونَ أبويك » .

فقالت : وما هو ؟

قالت : فدعاني رسول اللَّه ﷺ فقرأ عليّ هذه الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ .

فقلت : قد اخترت اللَّه - عز وجل - ورسوله . . ، ففرح بذلك رسول اللَّه ﷺ[٢] .

الحمد للَّه إنه ليس من أمة محمد

عن أنس بن مالك عن رسول اللَّه ﷺ أنه دخل حائطًا من حوائط بني النجار فسمع صوتا من قبر ، فقال :

« متى دفِنَ صاحبُ هذا القبرِ ؟ » .

فقالوا : في الجاهلية ، فسر بذلك وقال :

« لولا أن لا تَدافنوا لدعوتُ اللَّهِ أن يسمِعَكم عذابَ القبرِ »[٣] .

---

(١) أحمد (٦ / ٢٦٣ ، ١٨٥) ، وعبد بن حميد (١٤٨٣) .

(٢) أحمد (٦ / ٧٧ ، ١٠٣ ، ١٥٢) .

(٣) أحمد (٣ / ١٠٣) ، والنسائي (المجتبى) (٤ / ١٠٢) ، وفي الكبرى (٢١٨٥) ، وابن حبان (٣١٢٦) .

اشتدى أزمة تنفرجي

يقول بعض الشعراء :

اشْـتَـدِّي أَزْمَـةُ تَـنْـفَـرِجِـي قَـدْ آذَنَ لَـيْـلُـكِ بِـالْـبَـلَـجِ

ولا ينبغي على العبد أن ينسى أن لحظات الشدة يعقبها سرور وفرح وغبطة ، وذكر صاحب الفرج بعد الشدة أن أحد الحكماء ابتلي بمصيبة فدخل عليه إخوانه يعزونه في المصاب فقال : إني علمت دواء من ستة أخلاط قالوا : ما هي . قال : الخلط الأول الثقة باللَّه . الثاني : علمي بأن كل مقدور كائن . الثالث : الصبر خير ما استعمله الممتحنون . الرابع : إن لم أصبر أنا فأي شيء أعمل ، ولم أكن أعين على نفسي بالجزع . الخامس : قد يمكن أن أكون في شر مما أنا فيه . السادس : من ساعة إلى ساعة فرج ، وها هي الصديقة تتجرع هذا الكأس فيعقب اللَّه حزنا فرحًا وسرورًا وكذلكم النبي .

عن ابن شهاب الزهري قال : حدثني عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وعلقمة ابن وقاص وعبد اللَّه بن عتبة بن مسعود عن عائشة زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فبرأها اللَّه من ذلك ، وكل حدثني طائفة من حديثهما ، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض ، وأحسن اقتصاصًا وبعضهم يصدق حديث بعض ، قالت : كان رسول اللَّه ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه فأتيهن خرج سهمها خرج بها معه ، قالت : فأقرع بيننا في غزاة غزاها ، فخرج سهمي فخرجت معه بعدما أنزل الحجاب ، فأنا أحمل في هودجي ، وأنزل فيه ، حتى إذا فرغ رسول اللَّه ﷺ من غزوته تلك وقفل ، ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحل ، فالتمست صدري فإذا عقد لي من جزع أظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني

ابتغاؤه ، فأقبل الذين يرحلون بي ، فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب ، وهم يحسبون أنني فيه ، وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلن ، ولم يهبلهن اللحم إنما يأكلن العلقة منْ الطعام ، فلم يستنكر القوم حين رفعوه ثقل الهودج ، فاحتملوه وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ، ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش فجئت منزلهم وليس فيه داع ولا مجيب ، فيممت منزلي الذي كنت فيه وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليَّ ، فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني ، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس من وراء الجيش فأدلج عند منزلي ، فرأى سواد إنسان نائم ، فأتاني ، وكان يراني قبل نزول الحجاب ، فما استيقظت إلا باسترجاعه حين رآني ، فواللَّه ما كلمني ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه ، ثم أناخ راحلته فوطئ على يدها فركبتها ، فانطلق يقود بي الراحلة ، حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا معرسين في نحر الظهيرة ، فهلك من هلك ، وكان الذي تولى كبر الإفك عبد اللَّه بن أبي بن سلول ، فقدمنا المدينة فاشتكيتُ بها شهرًا ، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك ، لا أشعر بشيء من ذلك ، ويريبني في وجعي أني لا أرى من رسول اللَّه ﷺ اللطف الذي كنت أراه منه حين أمرض ، إنما يدخل علي فيسلم ، ثم يقول :

« كيفَ تِيكُمْ ؟ » .

فذلك يُريبني ولا أشعر ، حتى نقهت ، فخرجت أنا وأم مسطح بنت أبي رهم قبل المناصع وهي متبرزنا لا نخرج إلا من ليل إلى ليل ، وذلك قبل أن تتخذ الكُنُف قريبًا من بيوتنا ، وأمْرُنا أمْرُ العرب الأول في التبرز ، وأقبلت أنا وأم مسطح نمشي ، فعثرت في مرطها ، فقالت ، تعس مسطح ، فقلت لها : بئس ما قلت أتسبين رجلا شهد بدرًا ؟ ! فقالت : يا هنتاه ألم تسمعي ما قال ؟ ! قلت : وماذا قال ؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك ، فازددت مرضًا إلى مرضي ، فلما رجعتُ إلى بيتي دخل علي رسول اللَّه ﷺ فقال :

« كيفَ تيكم ؟ » .

قلت : ائذن لي إلى أبويَّ ، قلت وأنا حيئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما .

قالت : فأتيت أبوي فقلت : لأمي ما تحدث به الناس : قالتْ : يا بنية هوني علي نفسك ، فواللَّه لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها . فقلت : سبحان اللَّه ! وقد تحدث الناس بهذا ! .

قالت : فبت تلك الليلة ، حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت ، فدعا رسول اللَّه ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله . قالت : فأما أسامة فأشار عليه بالذي يعرف من براءة أهله ، وبالذي يعلم في نفسه من الود لهم . فقال أسامة : أهلك يا رسول اللَّه ولا نعلم إلا خيرًا ، وأما علي فقال : يا رسول اللَّه لم يضيق اللَّه عليك ، والنساء سواها كثير ، وسل الجارية تصدقك .

قالت : فدعا رسول اللَّه ﷺ بريرة فقال لها :

« هل علمِت مِن عائشَة شيئًا يُريبُك ؟ ! » .

فقالت بريرة : لا والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرًا أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن العجين حتى تأتي الداجن فتأكله . قالت : فقام رسول اللَّه ﷺ من يومه فاستعذر من عبد اللَّه بن أبي بن سلول . فقال رسول اللَّه :

« يا معشرَ المسلمينَ من يُعذرني مِن رجلٍ بلغني أذاه في أهلي ؟ فواللَّهِ ما علمتُ على أهلي إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلًا ما علمتُ عَليه إلا خيرًا ، وما كان يدخل على أهلي إلا معي » .

فقام سعد بن معاذ فقال : أنا أعذرك منه يا رسول اللَّه ، إن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ،

فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان قبل ذلك رجلًا صالحًا ولكن أجهلته الحمية فقال : كذبت لعمر اللَّه لا تقتله ولا تقدر على قتله . فقام أسيد ابن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر اللَّه ليقتلنه ، وإنك منافق تجادل عن المنافقين ، فثار الحيان الأوس والخزرج ، حتى هموا بالقتال ، ورسول اللَّه يخفضهم حتى سكتوا وسكت ، وبكيت يومي لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ، حتى ظننت أن البكاء فالق كبدي ، فبينا أنا على ذلك إذ استأذنت امرأة من الأنصار ، فأذنت لها ، فجلست تبكي معي ، فبينا نحن كذلك إذ دخل رسول اللَّه ﷺ فجلس عندي ، ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها ، وقد مكث شهرًا لا يوحى إليه في شأني ، فتشهد ثم قال :

« أما بعدُ ، يا عائشةُ ، فإنَّه قد بلغني عَنك كذا وكذا ، فإن كنتِ بريئةٌ فسيبِّرئُك اللَّهُ ، وإن كنت ألممتِ بذنبٍ فاستغفري اللَّهَ وتوبي إليه ، فإنَّ العبدَ إذا اعترَف بذنبٍ ثم تابَ تابَ اللَّهُ عليه » .

فلما قضى رسول اللَّه ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبي : أجب عني رسول اللَّه ﷺ فيما قال . فقال : ما أدري ما أقول لرسول اللَّه ﷺ . فقلت لأمي ، قالت مثل ذلك ، فقلت : وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرًا من القرآن : واللَّه لقد علمت أنكم قد سمعتم ما تحدث به ، وقرَّ في أنفسكم وصدقتم ، ولئن قلت إني بريئة - واللَّه يعلم أني بريئة - لا تصدقوني بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر يعلم اللَّه أني منه بريئة لتصدقني ، واللَّه ما أجد لي ولكم مثلا إلا ما قال أبو يوسف إذ قال : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف : ١٨] .

قالت : ثم تحولت على فراشي ، وأنا أرجو أن يبرئني اللَّه ببراءتي ، ولكن ما طمعت أن ينزل اللَّه في شأني وحي يتلى ، ولأنا كنت أحقر في

نفسي من أن ينزل في قرآن يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول اللَّه ﷺ في النوم رؤيا يبرئني اللَّه ، قالت : فواللَّه ما رام رسول اللَّه ﷺ من مجلسه ، ولا خرج أحد من البيت حتى أنزل اللَّه عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء ، حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في يوم شات .

قالت : فسر عن رسول اللَّه وهو يضحك .

وفي رواية ابن راهويه عن عائشة قالت : فواللَّه الذي هو أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما زال يضحك حتى إني لأنظر إلى نواجذه سرورًا(١) .

فكان أول كلمة تكلم بها أن قال :

« يا عائشة احمدي اللَّه ، فقد برأك اللَّه » .

فقلت : بحمد اللَّه لا بحمدكم . فقالت لي أمي : قومي إلى رسول اللَّه .

فقلت : لا واللَّه لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا اللَّه ، فأنزل اللَّه - عز وجل - : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور :١١] الآيات كلها . فلما أنزل اللَّه براءتي قال أبو بكر الصديق - وكان ينفق على مسطح - : واللَّه لا أنفق على مسطح شيئا أبدًا بعدما قال لعائشة ما قال ، فأنزل اللَّه -عز وجل - : ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ [النور : ٢٢] إلى آخر الآية . . ، فقال أبو بكر : بلى إني أحب أن يغفر اللَّه لي . فرجع إلى مسطح الذي كان يجري عليه . قالت : وكان رسول اللَّه ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمري فقال :

« يا زينبُ ما علمت ؟ وما رأيت ؟ » .

فقالت : أحمي سمعي وبصري ، واللَّه ما علمتُ عليها إلا خيرًا . قالت

(١) مسند إسحاق بن راهويه (١١٣١) .

عائشة : وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ ، فعصمها بالورع ، فطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب عنها ، فهلكت فيمن هلك .

قال الزهري : فهذا ما انتهى إلينا من حديث هؤلاء الرهط[1] .

وفي رواية البخاري : عن عائشة قالت : لما ذكر من شأني الذي ذكر ، وما علمت به ، قام رسول اللّه ﷺ في خطيبا فتشهد فحمد اللّه وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

« أما بعدُ أشيروا عليّ في أُناسٍ أبنوا أهلي ، وايم اللّه ما علمت على أهلي من سوءٍ ، وأبنوهم بمن واللّه ما علمتُ عليه من سوءٍ قطٌّ ، ولا يدخلُ بيتي قطُّ إلا وأنا حاضر ، ولا غبت في سفرٍ إلا غاب معي » .

فقام سعد بن معاذ فقال : ائذن لي يا رسول اللّه أن نضرب أعناقهم ، وقام رجل من بين الخزرج - وكانت أم حسان بن ثابت من رهط ذلك الرجل - فقال : كذبت أما واللّه أن لو كانوا من الأوس ما أحببت أن تضرب أعناقهم ، حتى كاد أن يكون بين الأوس والخزرج شر في المسجد نوما علمت، فلما كان مساء ذلك اليوم خرجت لبعض حاجتي ومعي أم مسطح فعثَرَت وقالت : تعس مسطح . فقلت أى تسبين ابنك . وسكتت ، ثم عثرت الثانية فقالت : تعس مسطح . فقلت لها : تسبين ابنك . ثم عثرت الثالثة فقالت تعس مسطح . فانتهرتها ، فقالت : واللّه ما أسبه إلا فيك . فقلت : في أي شأني ؟ قالت : فبقرت لي الحديث ، فقلت : وقد كان هذا ؟ قالت : نعم واللّه . فرجعت إلى بيتي كأن الذي خرجت له لا أجد منه قليلا ولا كثيرا ، ووعكت ، فقلت لرسول اللّه ﷺ : أرسلني إلى بيت أبي . فأرسل معي الغلام ، فدخلت الدار فوجدت أم رومان في السفل ، وأبا بكر فوق

---

(١) الطبراني في الكبير (٢٣ / ٨٣) .

البيت يقرأ ، فقالت أمي : ما جاء بك يا بنية؟ فأخبرتها ، وذكرت لها الحديث . . . وإذا هو لم يبلغ منها مثل ما بلغ مني ، فقالت : يا بنية خفضي عليك الشأن ، فإنه واللَّه لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا حسدنها ، وقيل فيها ، وإذا هو لم يبلغ مها ما بلغ مني ، قلت : وقد علم به أبي؟ قالت : نعم . قلت :ورسول اللَّه ﷺ؟ قالت : نعم ، ورسول اللَّه ﷺ فاستعبرت وبكيت . فسمع أبو بكر صوتي وهو فوق البيت يقرأ فنزل ، فقال لأمي : ما شأنها؟ قالت : بلغها الذي ذكر من شأنها ، ففاضت عيناه . قال : أقسمت عليك أي بنية إلا رجعت إلى بيتك فرجعت ولقد جاء رسول اللَّه ﷺ بيتي ، فسأل عني خادمتي ، فقالت : لا واللَّه ما علمت عليها عيبا ، إلا أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خميرها - أو عجينها - وانتهرها بعض أصحابه . فقالوا : اصدقي رسول اللَّه ﷺ ، حتى أسقطوا لها به ، فقالت : سبحان اللَّه ! واللَّه ما علمت عليها إلى ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر . وبلغ الأمر إلى ذلك الرجل الذي قيل له فقال : سبحان اللَّه واللَّه ما كشفت كنف أنثى قط . قالت عائشة : فقتل شهيدا في سبيل اللَّه .

قالت : وأصبح أبواي عندي ، فلم يزالا حتى دخل علي رسول اللَّه ﷺ وقد صلى العصر ، ثم دخل وقد اكتنفني أبواي عن يميني وعن شمالي ، فحمد اللَّه وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعدُ يا عائشةُ ، إن كنت قارفتِ سوءًا أو ظلمتِ فتوبي إلى اللَّهِ ، فإنَّ اللَّهُ يقبلُ التوبةَ مِن عبادِه » .

قالت : وقد جاءت امرأة من الأنصار فهي جالسة بالباب ، فقلت : ألا تستحي من هذه المرأة أن تذكر شيئًا . . فوعظ رسول اللَّه ﷺ فالتفت إلى أبي ، فقلت : أجبه . قال : فماذا أقول؟ فالتفتُ إلى أمي ، فقلت : أجيبيه ، فقالت : أقول ماذا؟ فلما لم يجيباه تشهدت فحمدت اللَّه ، وأثنيت

عليه بما هو أهله ، ثم قلت : أما بعد فواللَّه لئن قلت لكم إني لم أفعل واللَّه - عز وجل - يشهد إني لصادقة ما ذاك بنافعي عندكم ، لقد تكلمتم به وأشربته قلوبكم ، وإن قلت إني فعلت واللَّه يعلم أني لم أفعل لتقولن قد باءت به على نفسها ، وإني واللَّه ما أجد لي ولكم مثلا - والتمست اسم يعقوب فلم أقدر عليه - إلا أبا يوسف حين قال : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف : ١٨] وأنزل اللَّه على رسول اللَّه ﷺ من ساعته ، فسكتنا ، فرفع عنه ، وإني لأتبين السرور في وجهه ، وهو يمسح جبينه ويقول :

« أبَشري يا عائشةُ ، فقد أنَزلَ اللَّهُ براءَتَك » .

قالت : وكنت أشد ما كنت غضبًا ، فقال لي أبواي : قومي إليه . فقلت : واللَّه لا أقوم إليه ، ولا أحمده ولا أحمدكما ، ولكن أحمد اللَّه الذي أنزل براءتي ، لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه .

وكانت عائشة تقول : أما زينب بنت جحش فعصمها اللَّه بدينها فلم تقل إلا خيرًا ، وأما أختها حمنة فهلكت فيمن هلك ، وكان الذي يتكلم فيه مسطح وحسان بن ثابت والمنافق عبد اللَّه بن أبي ، وهو الذي كان يستوشيه ويجمعه ، وهو الذي تولى كبره منهم هو وحمنة .

قالت : فحلف أبو بكر أن لا ينفع مسطحًا بنافعة أبدًا ، فأنزل اللَّه - عز وجل - : ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ [النور : ٢٢] إلى آخر الآية ، يعني أبا بكر الصديق رضي اللَّه عنه : ﴿أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ﴾ يعني مسطحًا إلى قوله : ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ . حتى قال أبو بكر : بلى واللَّه يا ربَّنا ، إنا لنحب أن تغفر لنا ، وعاد له بما كان يصنع[١] .

(١) البخاري (٤٧٥٧) ، ومسلم (٢٧٧٠) .

ما ارتفع شيء من الدنيا إلا نزل

قال الشاعر :

لكلِّ شيءٍ إذا ما تَمَّ نُقْصَانُ وَمَا لِكَسْرِ قَنَاةِ الدِّينِ جُبْرَانُ

فالعبد عليه أن يعلق بصره وبصيرته الآخرة لا الدنيا ، فأمور الدنيا وإن ارتفعت في يوم ما فهذا نذير بنزولها ، وإذا تم شيء بدأ نقصانه ، فلا يفتخر بها ولا بما فيها إلا طاعة اللَّه وما وال ذلك ، وهذا ما يبينه هذا الحديث .

عن أنس بن مالك رضي اللَّه عنه ، أن النبي ﷺ سابق رجلا ، فسبقه رسول اللَّه ﷺ ، فسر بذلك المسلمون ، ثم قال الرجل للنبي ﷺ : العود يا رسول اللَّه .

قال : « نعم » .

فسابقه ، فسبقه الرجل ، فكره ذلك رسول اللَّه ﷺ وكرهه أصحابه ، فقال رسول اللَّه :

« إِنَّ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يَرْتَفِعَ شَيْءٌ مِن الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ »[1] .

ومن لنا بفهم عثمان رضي اللَّه عنه

عن أم عمر بنت حسان قالت : سمعت أبي يقول : بلغني أن رسول اللَّه ﷺ قال :

« مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَلَهُ الْجَنَّةُ » .

---

(١) البخاري (٦٥٠١) . والفظ للقضاعي في الشهاب . وأبو داود (٤٨٠٢) ، والنسائي في المجتبى (٦ / ٢٢٧) ، وفي الكبرى (٤٤٢٩) ، وأحمد (٣ / ١٠٣ / ٢٥٣) ، وابن حبان (٧٠٣) .

فقال عثمان : علي مائة راحلة ، ثم قال : أقلني يا رسول اللَّه ، فأقاله . فقال : علي عددها من الخيل ، فسَرَّ ذاك رسول اللَّه ﷺ ومن عنده ، ثم قال له عند ذلك كلامًا حسنًا[١] .

أدرك ما فاتك فقد سبقت

عن حويطب قال : لما دخل رسول اللَّه ﷺ مكة خفت خوفا شديدًا - فذكر قصة طويلة - ففرقت أهلي بحيث يأمنون ، وانتهيت إلى حائط عوف فأقمت فيه ، فإذا أنا بأبي ذر ، وكانت لي به معرفة ، والمعرفة أبدا نافعة ، فسلمت عليه فذكرت له ، فقال : اجمع عيالك وأنت آمن ، وذهب إلى رسول اللَّه فأخبره فاطمأننت ، فقال لي أبو ذر : حتى ومتى يا أبا محمد ؟ قد سبقت وفاتك خير كثير ، ورسول اللَّه ﷺ أبر الناس وأحلم الناس ، وشرفه شرفك ، وعزه عزك ؟

فقلت : أنا أخرج معك . فقال : إذا رأيته فقل : السلام عليك أيها النبي ورحمة اللَّه . فقلتها . فقال :

« وعليكَ السَّلامُ » .

فتشهدت ، فسر بذلك ، وقال :

« الحمدُ للَّهِ الذي هداك » .

قال : واستقرضني مالا ، فأقرضته ، أربعين ألفا ، وشهدت معه حنينًا ، وأعطاني من الغنائم ، ثم قدم حويطب المدينة فنزلها إلى أن مات ، باع داره بمكة من معاوية بأربعين ألف دينار ، فاستكثرها بعض الناس فقال حويطب :

---

(١) أحمد في فضائل الصحابة (٧٣٠) .

وما هي لمن عنده خمس من العيال[١] .

مثل صاحب ياسين

قال ابن إسحاق : قال ابن عباس وغيره : إن أهل القرية هموا بقتل رُسُلهم فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى ، أي لينصرهم من قومه (وهو حبيب النجار) . . وكان يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم : ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يس : ٢١] فيما يدعونكم إليه من عبادة اللّه وحده لا شريك له .

وقال ناصحًا لقومه : ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس : ٢٢-٢٧] فلما قال لهم هذه (النصيحة) وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه ، ولم يكن له أحد يمنع عنه[٢] .

وهذا رجل قام بنفس الدور .

وأخرج ابن سعد في طبقاته بسند ضعيف قال : لم يحضر عروة بن مسعود ولا غيلان بن سلمة حصار الطائف ، كانا بجرش يتعلمان صنعة العرادات[٣] والمنجنيق والدبابات ، فقدما وقد انصرف رسول اللّه ﷺ عن الطائف ، فنصبا المنجنيق والعرادات والدبابات ، وأعدا للقتال ثم ألقي اللّه في قلب

(١) الحاكم (٣ / ٤٩٢) ، وتهذيب الكمال (٧ / ٤٦٥) ، والإصابة (٢ / ١٤٣) .
(٢) ابن كثير في التفسير ج (٦) ، ص (٣٧٠ ، ٣٧١) .
(٣) آلة حربية أصغر من المنجنيق .

عروة الإسلام وغيره عما كان عليه ، فخرج إلى رسول اللَّه ﷺ فأسلم ، ثم استأذن رسول اللَّه ﷺ في الخروج إلى قومه ليدعوهم إلى الإسلام ، فقال :

« إنهم إذًا قاتِلوك » .

قال : لأنا أحب إليهم من أبكار أولادهم . . ثم استأذنه الثانية ، ثم الثالثة ، فقال :

« إن شِئت فاخرُجْ » .

فخرج فسار إلى الطائف خمسا ، فقدم عشاء فدخل منزله ، فجاء قومه فحيوه بتحية الشرك ، فقال : عليكم بتحية أهل الجنة السلام ، ودعاهم إلى الإسلام ، فخرجوا من عنده يأتمرون به ، فلما طلع الفجر أوفي على غرفة له ، فأذن بالصلاة ، فخرجت ثقيف من كل ناحية ، فرماه رجل من بني مالك يقال له : أوس بن عوف فأصاب أكحله فلم يرقأ دمه ، وقام غيلان بن سلمة وكنانة بن عبد ياليل والحكم بن عمرو بن وهب ووجوه الأحلاف فلبسوا السلاح وحشدوا ، فلما رأى عروة ذلك قال قد تصدقت بدمي على صاحبه ؛ لأصلح بذاك بينكم ، وهي كرامة أكرمني اللَّه بها ، وشهادة ساقها اللَّه إلي ، وقال : ادفنوني مع الشهداء الذين قتلوا مع رسول اللَّه ﷺ ، ومات . فدفنوه معهم ، وبلغ رسول اللَّه ﷺ خبره ، فقال :

« مثله كمثل صاحب ياسين ، دعا قومه إلى اللَّه فقتلوه » .

ولحق أبو المليح بن عروة وقارب بن الأسود بن مسعود بالنبي ﷺ فأسلما ، وسأل رسول اللَّه ﷺ عن مالك بن عوف ، فقالا : تركناه بالطائف ، فقال :

« خبروه أنه إن أتاني مسلمًا رَدَدتُ إليه أهلَه وماله وأعطيتُه مائةً مِن الإبلِ » .

فقدم على رسول اللَّه ﷺ فأعطاه ذلك ، وقال : يا رسول اللَّه أنا أكفيك ثقيفا ، أغير على سرحهم حتى يأتوك مسلمين ، فاستعمله رسول اللَّه ﷺ على من أسلم من قومه والقبائل ، فكان يغير على سرح ثقيف ويقاتلهم ، فلما رأت ذلك ثقيف مشوا إلى عبد ياليل وائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى رسول اللَّه نفرا منهم وفدا ، فخرج عبد ياليل وأبناه كنانة وربيعة وشرحبيل بن غيلان بن سلمة والحكم ابن عمرو بن وهب بن معتب وعثمان بن أبي العاص وأوس بن عوف ونمير بن خرشة بن ربيعة فساروا في سبعين رجلا ، وهؤلاء الستة رؤساؤهم - وقال بعضهم : كانوا جميعا بضعة عشر رجلا وهو أثبت - .

قال المغيرة بن شعبة : إني لفي ركاب المسلمين بذي حرض فإذا عثمان ابن أبي العاص تالقاني يستخبرني ، فلما رأيتهم خرجت أشتد أبشر رسول اللَّه بقدومهم ، فألقي أبا بكر الصديق رضي اللَّه تعالى عنه ، فأخبرته بقدومهم ، فقال : أقسمت عليك لا تسبقني إلى رسول اللَّه بخبرهم ، فدخل فأخبر رسول اللَّه فسر بمقدمهم ، ونزل من كان منهم من الأحلاف على المغيرة بن شعبة فأكرمهم ، وضرب النبي ﷺ لمن كان فيهم من بني مالك قبة في المسجد ، فكان رسول اللَّه ﷺ يأتيهم كل ليلة بعد العشاء فيقف عليهم ويحدثهم حتى يراوح بين قدميه ، ويشكو قريشا ويذكر الحرب التي كانت بينه وبينهم(١) .

وفي رواية : كان عروة بن مسعود غائبا عن الطائف حين حاصرهم النبي ﷺ كان بجرش يتعلم علم الدبابات والمنجنيق ، فلما قدم الطائف بعد انصرف رسول اللَّه ﷺ قذف اللَّه في قلبه الإسلام فقدم على رسول اللَّه ﷺ المدينة في شهر ربيع الأول سنة تسع من الهجرة فأسلم ، فسر رسول اللَّه ﷺ بإسلامه . . وذكر الحديث بتمامه(٢) .

---

(١) طبقات ابن سعد (١ / ٣١٢) .

(٢) طبقات ابن سعد (٣ / ٤٩٢) .

وافد الخير على أهل النصرة

جاء مصعب الخير وفي جعبته رغبة تتوقد لهداية أهل المدينة ، وعلى قدر العزم تؤتى العزائم ، فوفقه اللَّه إلى ما يريد وإلى ما تهفوا إليه نفسه على رغبة سابقة للنبي محمد ﷺ ، فلما انصرف أهل العقبة الأولى الاثنا عشر وفشا الإسلام في دور الأنصار ، أرسلت الأنصار رجلا إلى رسول اللَّه ﷺ ، وكتبت إليه كتابا : ابعث إلينا رجلا يفقهنا في الدين ، ويقرئنا القرآن . . ، فبعث إليهم رسول اللَّه مصعب بن عمير ، فقدم فنزل على أسعد بن زرارة ، وكان يأتي الأنصار في دورهم وقبائلهم فيدعوهم إلى الإسلام ، ويقرأ عليهم القرآن ، فيسلم الرجل والرجلان ، حتى ظهر الإسلام وفشا في دور الأنصار كلها والعوالي ، إلا دورا من أوس اللَّه وهي خطمة ووائل وواقف ، وكان مصعب يقرئهم القرآن ويعلمهم ، فكتب إلى رسول اللَّه ﷺ يستأذنه أن يجمع بهم ، فأذن له وكتب إليه :

« انظر مِن اليومِ الذي يجهَرُ فيه اليهودُ لسبتهِم ، فإذا زالت الشَّمسُ فازدَلف إلى اللَّه فيهَم بركعتين واخطُب فيهم » .

فجمع بهم مصعب بن عمير في دار سعد بن خيثمة - وهم اثنا عشر رجلا وما ذبح لهم يومئذ إلَّا شاة - فهو أول من جمع في الإسلام جمعه ، وقد روى قوم من الأنصار أن أول من جمع بهم أبو أمامة أسعد بن زرارة ، ثم خرج مصعب بن عمير من المدينة مع السبعين الذين وافوا رسول اللَّه ﷺ في العقبة الثانية من حاج الأوس والخزرج ، ورافق أسعد بن زرارة في سفره ذلك ، فقدم مكة فجاء منزل رسول اللَّه ﷺ أولا ، ولم يقرب منزله ، فجعل يخبر رسول اللَّه ﷺ عن الأنصار وسرعتهم إلى الإسلام ، واستبطائهم رسول اللَّه ﷺ ، فَسُرَّ رسول اللَّه ﷺ بكل ما أخبره[1] .

---

(١) طبقات ابن سعد (٨ / ٤١٢ - ٤١٣) .

أنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها

عن محمد بن عبد اللَّه بن عمرو بن عثمان قال : كان إسلام خالد بن سعيد قديما ، وكان أول إخوته أسلم ، وكان بَدْءُ إسلامه أنه رأى في النوم أنه واقف على شفير النار ، فذكر من سعتها ما اللَّه به أعلم ، ويرى في النوم كأن أباه يدفعه فيها ، ويرى رسول اللَّه آخذًا بحقويه لئلا يقع ، ففزع من نومه فقال : أحلف باللَّه إن هذه لرؤيا حق ، فلقي أبا بكر بن أبي قحافة فذكر ذلك له ، فقال أبو بكر : أُريدَ بك خيرا ، هذا رسول اللَّه ﷺ فاتبعه ، فإنك ستتبعه وتدخل معه الإسلام ، الذي يحجزك من أن تقع فيها ، وأبوك واقع فيها . فلقي رسول اللَّه ﷺ وهو بأجياد فقال : يا محمد إلامَ تدعوا ؟ قال :

« أدعوا إلى اللَّهِ وحدَه لا شريكَ له ، وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولهُ ، وخلْع ما أنت عَليه من عبادةِ حَجَرٍ ، لا يسمَعُ ولا يبصِرُ ، ولا يضرُّ ولا ينفَعُ ، ولا يدري من عبدَه مّمن لم يعبُدْه » .

قال خالد : فإني أشهد أن لا إله إلا اللَّه ، وأشهد أنك رسول اللَّه . فسر رسول اللَّه بإسلامه[1] .

امرأة تساوي عددًا من الرجال

قال محمد بن عمر : شهدت أم عمارة بنت كعب أُحُدًا مع زوجها غزية بن عمرو وانبيها ، وخرجت معهم بشن لها في أول النهار تريد أن تسقي الجرحى ، فقاتلت يومئذ وأبلت بلاء حسنا ، وجرحت أثنى عشر جرحا بين طعنة برمح أو ضربة بسيف ، فكان أم سعيد بنت سعد بن ربيع تقول : دخلت

(١) طبقات ابن سعد (٤ / ٩٤) .

عليها فقلت : حدثيني خبرك يوم أُحُد؟ قالت : خرجت أول النهار إلى أحد ، وأنا أنظر ما يصنع الناس ، ومعي سقاء فيها ماء فانتهيت إلى رسول اللَّه ﷺ وهو في أصحابه والدولة والريح للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول اللَّه ﷺ ، فجعلت أباشر القتال : وأذب عن رسول اللَّه ﷺ بالسيف ، وأرمي بالقوس ، حتى خلصت إلي الجراح ، قالت : فرأيت على عاتقها جرحا له غور أجوف ، فقلت : يا أم عمارة من أصابك هذا ؟ قالت : أقبل ابن قمئة وقد وَلَّى الناسُ عن رسول اللَّه ﷺ يصيح : دلوني على محمد ، فلا نجوت إن نجا . فاعترض له مصعب بن عمير وناس معه ، فكنت فيهم فضربني هذه الضربة ، ولقد ضربته على ذلك ضربات ، ولكن عدو اللَّه كان عليه درعان ، فكان ضمرة بن سعيد المازني يحدث عن جدته - وكانت قد شهدت أُحُدًا تسقي الماء - قالت : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول :

« لمقامُ نسيبةُ بنتُ كعبٍ اليوم خيرٌ مِن مقامِ فلانٍ وفلانٍ » .

وكان يراها يومئذ تقاتل أشد القتال ، وإنها لحاجزة ثوبها على وسطها ، حتى جرحت ثلاثة عشر جرحا ، وكانت تقول : إني لأنظر إلى ابن قمئة وهو يضربها على عاتقها ، وكان أعظم جراحها ، فداوته سنة ، ثم نادى منادي رسول اللَّه إلى حمراء الأسد ، فشدت عليها ثيابها ، فما استطاعت من نزف الدم ، ولقد مكثنا ليلتنا نكمد الجراح حتى أصبحنا ، فلما رجع رسول اللَّه ﷺ من الحمراء ما وصل رسول اللَّه ﷺ إلى بيته حتى أرسل إليها عبد اللَّه بن كعب المازني يسأل عنها ، فرجع إليه يخبره بسلامتها . فَسُرَّ بذلك النبي ﷺ[1] .

---

(١) طبقات ابن سعد (٨ / ٤١٢ - ٤١٣) .

ليلة العبادة فيها مقبولة تساوي (٨٣) سنة عبادة

أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره عن علي بن عروة قال ذكر رسول اللَّه يومًا أربعة من بني إسرائيل عبدوا اللَّه ثمانين عاما لم يعصوه طرفة عين ، فعجب الصحابة من ذلك ، فأتاه جبريل فقال : قد أنزل اللَّه عليك خيرًا من ذلك ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ [القدر : ٣] . هذا أفضل من ذاك ، فسر بذلك رسول اللَّه ﷺ والناس معه[١] .

الإسلام وصية بالخير وفيه مصلحة العباد

روى الواقدي في آخر كتاب الردة عن أبي بكر بن سليمان بن أبي حثمة قال : بعث رسول اللَّه ﷺ العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدي بالبحرين ليال بقين من رجب سنة تسع منصرفة ﷺ من تبوك ، وكتب إليه كتابا فيه :

« بسِم اللَّه الرحمنِ الرحيم ، مِن محمدٍ رسولِ اللَّهِ إلى المنْذِرِ بن ساوى ، سلامٌ على من اتَّبع الهُدى ، أَما بعدُ فإني أدعوك إلى الإسلامِ ، فأسلم تَسْلَم ، أَسْلِم يجعلُ اللَّهُ لك ما تحتَ يديك ، واعلم أنَّ ديني سيظهَرُ إلى مُنتهى الخُفِّ والحافِرِ » .

وختم رسول اللَّه ﷺ الكتاب ، فخرج العلاء بن الحضرمي إلى المنذر ومعه نفر فيهم أبو هريرة ،وقال له رسول اللَّه ﷺ :

« استوصِ بهم خيرًا » .

وقال له :

---

(١) تنوير الحوالك شرح موطأ مالك ص (٢٣٦) .

« إن أجابك إلى ما دعوتَه إليه ، فأقم حتى يأتيك أمري ، وخُذْ الصدقةَ مِن أغنيائِهم فرُدَّها في فقرائِهم » .

قال العلاء : فاكتب لي يا رسول اللَّه كتابا يكون معي ، فكتب له رسول اللَّه ﷺ فرائض الإبل والبقر والغنم والحرث والذهب والفضة على وجهها ، وقدم العلاء بن الحضرمي عليه فقرأ الكتاب ، فقال : أشهد أن ما دعا إليه حق ، وأنه لا إله إلا اللَّه ، وأن محمدا عبد اللَّه ورسوله . وأكرم منزله ، ورجع العلاء فأخبر النبي ﷺ خبره فَسُرَّ[١] .

فَلِمَا نُعطي الدَّنِيَّةَ فِي ديننا ؟

روي أنه ﷺ لما بلغه تألب العرب واجتماع الأحزاب قال للأنصار :

« إنّ العربَ قد رمَتكم عن قوسٍ واحدةٍ ، فهل ترونَ أن ندفَعَ إليهم شيئًا مِن تمارِ المدينةِ ؟ » .

قالوا : يا رسول اللَّه إن قلت عن وحي فسمع وطاعة ، وإن قلت عن رأي فرأيك متبع ، كنا لا ندفع إليهم تمرة إلا بشراء و قرى ونحن كفار ، فكيف وقد أعزنا اللَّه بالإسلام ؟

فَسُرَّ النَّبِيُّ ﷺ بقولهم[٢] .

حسن العهد من الإيمان

كانت خديجة رضي اللَّه عنها زوجة وفيَّةٌ كريمة الأصل والفعال ، ولطالما

(١) نصب الراية (٤ / ٤١٩) .

(٢) تلخيص الحبير (٤ / ١٣٠) .

كانت هذه الخصال محطّ إعجاب الرجال ؛ لأنها عزيزة ؛ ولذا حازت تقدير النبي ﷺ وحبه واحترامه حتى ما فتئ يذكرها في حياتها وبعد مماتها ، وحسن العهد من الإيمان .

فعن عائشة قالت : استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول اللّه ﷺ فعرف استئذان خديجة ، فارتاح لذلك فقال :

« اللّهمّ هالةُ بنتُ خويلدٍ » .

قالت عائشة : فغرت فقلت : وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت في الدهر فابدلك اللّه خيرًا منها ؟ !

(فارتاح لذلك) أي هش لمجيئها وسر بها . واهتز لذلك سرورا لتذكره بها خديجة وأيامها .

وفي رواية : (فارتاع لذلك) تغير واهتز سرورًا بذلك ، وأصل ارتاع من الروع وهو الفزع ، وليس مرادا هنا ، وقد يكون المعنى : تغير حزنا لتذكره فراقها . (اللّهم هالة) أي اجعلها يا اللّه هالة ، أو : هي هالة . (حمراء الشدقين) الشدق جانب الفم ، أرادت أنها عجوز كبيرة جدًّا ، قد سقطت أسنانها من الكبر ولم يبق في فمها بياض من الأسنان ، إنما حمرة اللثات[1] .

أعليك أغار يا رسول اللّه ؟

الغيرة موطن محمود إذا كان لحفظ المحارم وعلى قدر حب الشخص لدينه تكون غيرته لانتهاك محارم اللّه ، وكان النبي ﷺ لا يغضب لنفسه فإذا انتهكت محارم اللّه غضب غضبًا شديدًا ، ولقد كانت هذه سجيته ﷺ ومما

(١) البخاري (٣٨٢١) ، ومسلم (٢٣٤٧) .

يبرز ذلك ما ورد عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال : بينا نحن عند رسول اللَّه ﷺ إذ قال :

« بينا أنا نائمٌ رأيتُني في الجنَّةِ ، فإذا امرأةٌ تتوضَّأُ إلى جانبِ قصرٍ ، فقلت : لمن هذا القصرُ ؟ فقالوا : لعمرَ بنِ الخطّابِ ، فذكرتُ غيرَتَه ، فولَّيتُ مُدبِرًا » .

فبكى عمر وقال : أعليك أغار يا رسول اللَّه ؟

قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » : فبكى عمر وهو في المجلس . وقوله : بأبي وأمي : أي أفديك بهما ، وقوله : أعليك أعار : معدود من القلب والأصل أعليها أغار منك . قال ابن بطال : فيه الحكم لكل رجل بما يعلم من خلقه ، قال : وبكاء عمر يحتمل أن يكون سرورًا ، ويحتمل أن يكون تشوقًا أو خشوعًا .

اللَّهم اهدِ نساء المسلمين

عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال : كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة فدعوتها يوما فأسمعتني في رسول اللَّه ﷺ ما أكره ، فأتيت رسول اللَّه ﷺ وأنا أبكي ، قلت : يا رسول اللَّه إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى علي ، فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره ، فادع اللَّه أن يهدي أم أبي هريرة .

فقال رسول اللَّه ﷺ :

« اللَّهُمَّ اهْدِ أمَّ أَبِي هُرَيْرَةِ » .

فخرجت مستبشرا بدعوة نبي اللَّه ﷺ ، فلما جئت فصرت إلى الباب فإذا هو مجاف فسمعت أمي خشف قدمي ، فقالت : مكانك يا أبا هريرة ،

وسمعت خضخضة الماء ، فاغتسلت ، ولبست درعها ، وعجلت عن خمارها ، ففتحت الباب ثم قالت : يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله . قال : فرجعت إلى رسول اللَّه ﷺ فأتيته وأنا أبكي من الفرح . قلت : يا رسول اللَّه أبشر ، قد استجاب اللَّه دعوتك وهدى أم أبي هريرة ، فحمد اللَّه وأثنى عليه ، وقال : « خَيْرا ». فقلت : يا رسول اللَّه ادع اللَّه أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين ، ويحببهم إلينا ، فقال رسول اللَّه ﷺ :

« اللّهم حبِّبْ عبيدَك هذا - يعني أبا هُريرة وأمه - إلى عبادك المؤمنيَن ، وحَبِّبْ إليهم المؤمنينَ » .

فما خلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني[1] .

أخبار مفزعة مرتقبة ترفع الفرح !

إنه الدجال ، والدجال شر غائب ينتظر ، وما من نبي إلا حذر قومه منه ، حتى ورد في السنة التحذير منه دبر كل صلاة فما هذا الخبر الذي يقلق الفرح .

عن فاطمة بنت قيس قالت : صلى رسول اللَّه ﷺ ذات يوم ، وصعد المنبر ، وكان لا يصعد عليه قبل ذلك إلى يوم الجمعة ، فاشتد ذلك على الناس ، فمن بين قائم وجالس ، فأشار إليهم بيده : أن اقعدُوا فإنّي واللَّهِ ما قُمت مقامي هذا لأمرٍ ينفعُكم لرغبةٍ ولا لرهبةٍ ، ولكنّ تميمًا الداريَّ أتاني فأخبرني خيرًا منعني القيلولةَ مِن الفرحِ وقرةَ العينِ ، فأحببتُ أن أنشرَ عليكم فرح نبيِّكم ، ألا إن ابن عمٍّ لتميمِ الداريِّ أخبرني أن الريح ألجاتهم إلى جزيرة لا يعرفونها ، فقعدوا في قوارب السفينة فخرجوا فيها ، فإذا هم بشيء أهدَبَ

(١) مسلم (٢٤٩١) ، وأحمد (٢ / ٣١٩) .

أسودَ قالوا له : ما أنت ؟ قال : أنا الجساسةُ ، قالوا : أخبرينا ، قالت : ما أنا بمخبرتكم شيئا ،ولا سائلتكم ، ولكن هذا الدير قد رمقتموه فأتوه ، فإن فيه رجلا بالأشواق إلى أن تخبروه ويخبركم ، فأتوه فدخلوا عليه ، فإذا هم بشيخ مَوَثَّقٍ شديد الوثاق ، يظهر الحزن ، شديد التشكي ، فقال لهم : من أين ؟ قالوا : من الشام . قال : ما فعلت العرب ؟ قالوا : نحن قوم من العرب عم تسأل ؟ قال : ما فعل هذا الرجل الذي خرج فيكم ؟ قالوا : خيرا نأوي قوما فأظهره اللَّه عليهم ، فأمرهم اليوم جميع ،إلههم واحد ، ودينهم واحد ، قال : ما فعلت عين زغر ؟ قالوا : خيرا يسقون منها زروعهم ، ويستقون منها لسقيهم ، قال : فما فعل نخلُ بينَ عُمان وبيسان ؟ قالوا : يطعم ثمره كلّ عامٍ ، قال : فما فعلت بُحيرة الطَّبريَّةِ ؟ قالوا : تدفق جنباتها من كثرةِ الماءِ ، . . فزفر ثلاث زفرات ثم قال : لو انفلت من وثاقي هذا لم أدع أرضًا إلا وطئتُها برجلي هاتين ، إلا طِيبة ليس لي عليها سبيل .

قال النبي ﷺ :

« إلى هذا ينتهي فرحي ، هذه طيبة ، والذي نفسي بيده ما فيها طريق ضيق ولا واسع ، ولا سهل ولا جبل ؛ إلا وعليه ملك شاهر سيفه إلى يوم القيامة »[(١)] .

ونحوه حديث جابر قال : قام رسول اللَّه ﷺ ذات يوم على المنبر فقال :

« يا أيها الناس ! إني لم أَقم فيكم بخبرٍ جاءني من السماء ، ولكنّي بلَغني خبرٌ ففرحِت به ، فأحببت أن تفرحوا بَفَرحِ نبيكم ، إنه بينا ركب يسيرون في البحرِ إذ نفذ طعامُهم ، فرُفعت لهم جزيرة فخرجوا يريدون الخبز ، فلقيتهم الجساسة » . . . . فذكر الحديث بنحوه . . .[(٢)] .

---

(١) أحمد (٦ / ٣٧٣ ، ٤١٦) ، والترمذي (٢٢٥٣) ، وابن ماجة (٤٠٧٤) .

(٢) أبو يعلى (٢١٦٤) بسند صحيح .

متى تتزلزل الأرض غضبا من أهلها ؟

عن أنس بن مالك رضي اللّٰه تعالى عنه قال : دخلت على عائشة رضي اللّٰه تعالى عنها ورجل معها ، فقال الرجل : يا أم المؤمنين حدثينا عن الزلزلة ، فأعرضت عنه بوجهها .

قال أنس : فقلت لها : حدثينا يا أم المؤمنين عن الزلزلة !

فقالت : يا أنس إن حدثتك عنها عشت حزينا ، وبعثت حين تبعث وذلك الحزن في قلبك .

فقلت : يا أماه حدثينا .

فقالت : إن المرأة إذا خلعت ثيابها في غير بيت زوجها هتكت ما بينها وبين اللّٰه - عز وجل - من حجاب ، وإن تطيبت لغير زوجها كان عليها نار وشنار ، فإذا استحلوا الزنا وشربوا الخمور بعد هذا وضربوا المعازف غار اللّٰه في سمائه فقال للأرض : تزلزلي بهم ، فإن تابوا ونزعوا ، وإلا هدها عليهم .

فقال أنس : عقوبة لهم ؟ !

قالت : رحمة وبركة وموعظة للمؤمنين ،ونكالا وسخطة وعذابا للكافرين .

قال أنس : فما سمعت بعد رسول اللّٰه ﷺ حديثا أنا أشد به فرحا مني بهذا الحديث ، بل أعيش فرحًا ، وأبعث حين أبعث وذلك الفرح في قلبي - أو قال : في نفسي -[1] .

---

(١) الحاكم (٤ / ٥١٦) ، وقال : حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . وفي مجمع الزوائد (٨٧٦٥) قال : رواه الطبراني في الأوسط وفيه امرأتان لم أعرفهما وبقية رجاله ثقات .

فرحة غامرة ملأت كياني !

إن السعي وراء مطلوب معين عند الوصول إليه يسر الشخص ويفرح ، لا سيما إذا كان هذا المطلوب هو مرضاة رب الأرض والسماء ، وتزيد الفرحة إذا كان هذا الأمر قد زاد تعب الشخص في تحصيله وقطع الفيافي والقفار وأوذي وفقد ماله ومكانته في سبيل الوصول لهذه الفرحة ، فمن هو هذا السعيد بوصوله لمرغوبه الذي ملأ الفرح قلبه عندما أدرك هذا ؟ إنه صاحب قصة عجيبة وردت .

عن عبد اللَّه بن عباس حدثني سلمان حديثه من فيه قال : كنت رجلا فارسيا من أهل أصبهان من قرية يقال لها جي ، وكان أبي دهقان قريته ، وكنت أَحَبُّ خلق اللَّه إليه ، فلم يزل به حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تحبس الجارية ، فاجتهدت في المجوسية حتى كنت قاطن النار ، أوقدها لا أتركها تخبو ساعة واحدة ، وكانت لأبي ضيعة عظيمة ، فشغل يوما فقال لي : يا بني إني قد شغلت هذا اليوم عن ضيعتي ، فاذهب إليها فطالعها ، فأمره فيها ببعض ما يريد . ثم قال لي : لا تحتبس علي ، فإنك إن احتبست علي كنت أهم علي من ضيعتي ؛ وشغلتني عن كل شيء من أمري . فخرجت أريد ضيعته أسر إليها ، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون ، وكنت لا أدري ما أمر الناس لحبس أبي إياي في بيته ، فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون ، فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ، ورغبت في دينهم ، وقلت : هذا واللَّه خير من الدين الذي نحن عليه ، فما برحت من عندهم حتى غربت الشمس ، وتركت ضيعة أبي ، ثم قلت لهم : من أبصركم بهذا الدين ؟ قالوا : رجل بالشام ، ثم رجعت إلى أبي ، وقد بعث في طلبي وقد شغلته عن عمله ، قال أبي : بني أين كنت ؟ ! ألم أعهد إليك ما عهدت ؟ ! قلت : إنى بناس يصلون فى كنيسة لهم ،

فدخلت إليهم ، فما زلت عندهم وهم يصلون حتى غربت الشمس ، قال : أي بني ليس في ذلك الدين خير ، دينك ودين آبائك خير منه ، ثم حبسني في بيته ، وبعثت إلى النصراني فقلت : إذا قدم إليكم ركب من الشام فأخبروني بهم فقدم عليهم ركب من الشام ، تجار من النصارى ، فأخبرونى به ، فقلت لهم : إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم ، فألقيت الحديد من رجلي ، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام ، فلما قدمتها قلت : من أفضل أهل هذا الدين علما ؟ قالوا :الأسقف في الكنيسة ، فجئته فقلت :إني قد رغبت في هذا الدين ، فأحببت أن أكون معك ؛ أخدمك في كنيستك ، وأتعلم منك ، وأصلي معك ، قال : فادخل ، فدخلت معه ، وكان رجل سوء يأمر بالصدقة ، ويرغبهم فيها ، فإذا جمعوا به إليه شيئا منها اكتنزه لنفسه فلم يعط إنسانا منها شيئا ،حتى جمع قلالا من ذهب ووَرِقٍ ، فأبْغَضْتُه بُغْضًا شديدًا لما رأيته يصنع ، ثم مات واجتمعت إليه النصارى ليدفنوه ، فقلت لهم : إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها ؛ فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ،ولم يعط المساكين منها شيئا . قالوا : وما علمك بذلك ؟ قلت لهم : فأنا أدلكم على كنزه ، قالوا : فدلنا عليه ، فدللتهم عليه ، فاستخرجوا ذَهَبًا ووَرِقًا ، فلما رأوها قالوا : واللَّه لا ندفنه أبدًا . فصلبوه ثم رجموه بالحجارة ، وكان ثَمَّ رجل آخر فجعلوه مكانه .

قال سلمان : فلما رأيت رجلًا لا يصلى الخمس أفضل منه ، ولا أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أدأب ليلا ونهارا منه ، فأحببته حبا لم أحبه شيئا قط ، فما زلت معه زمانا ، ثم حضرته الوفاة ، فقلت له : يا فلان إني قد كنت معك فأحببتك حبا لم أحبه شيئا قط ، وقد حضرك من ترى من أمر اللَّه - عز وجل - فإلى من توصي بي ؟ وما تأمرني ؟ قال : أي بني ، واللَّه ما أعلم أحدًا على ما كنت عليه ، لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا كثيرا مما كانوا عليه إلا رجلا بالموصل ، وهو فلان ، وهو على ما كنت عليه ، فالحق به .

فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل ، فقلت له : يا فلان إن فلان أوصاني عند موته أن ألحق بك ، وأخبرني أنك على أمره ، قال : فأقم عندي . فأقمت عند ، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه ، فلم ألبث أن مات ، فلما حضرته الوفاة قلت له : يا فلانا إن فلانا أوصاني إليك ، وأمرني أن ألحق بك ، وقد حضر من أمر اللّه ما ترى ، فإلى من توصي بي ؟ وما تأمرني ؟ قال : يا بني لا أعلم بقي أحد آمرك أن تأتيه إلى رجلا بعمورية بأرض الروم ، على مثل ما نحن عليه .

فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية ، فأخبرته خبري ، فقال : أقم عندي ، فأقمت عنه خير رجل على هدي أصحابه وأمرهم ، واكتسبت حتى كانت عندي بقيرات وغنيمة ، ثم نزل به أمر اللّه - عز وجل - فلما حضر قلت له : يا فلان إني كنت مع فلان ، فأوصاني إلى فلان ، ثم أوصى فلان إلى فلان ، ثم أوصاني فلان إليك ، فإلى من توصي بي ؟ وإلى من تأمرني ؟ قال : واللّه ما أعلم أصبح على مثل ما نحن فيه أحد من الناس آمرك أن تأتيه ، ولكن أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام ، يخرج بأرض العرب إلى أرض - أظنه قال : ذات نخل - به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل . ثم مات وغيب ، فمكثت بعمورية ما شاء اللّه أن أمكث ، ثم مر بي نفر من كلب تجار ، فقلت لهم تحملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه ؟ وغنيمتي هذه ؟ قالوا : نعم ، فأعطيتهم وحملوني معهم حتى إذا قدموا وادي القرى ظلموني فباعوني من رجل يهودي ، فكنت عنده ، فرأيت النخل فرجوت البلد الذي وصف لي صاحبي ، ولم يحق في نفسي ، فبينا أنا عنده قدم عليه ابن عم له من بني قريظة وابتاعني منه ، فحملني إلى المدينة فواللّه ما هو أن رأيتها عرفتها بصفة صاحبى ، فأمت بها فبعث اللّه - عز وجل - رسول اللّه ﷺ وأقام بمكة ما أقام ، ما أسمع له

بذكر ، مع ما أنا فيه من شغل الرق ، ثم هاجر إلى المدينة ، فواللَّه إني لفي رأس عذق لسيدي أعمل فيه بعض العمل ، وسيدي جالس تحتي ، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال : قاتل اللَّه بني فيلة واللَّه إنهم ليجتمعون على رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي ، فلما سمعتها أخذني الفرح حتى ظننت أني سأسقط على سيدي ، ونزلت عن النخلة ، وجعلت أقول لابن عمه ذلك : ماذا تقول ؟ فعضب سيدي فلطمني لطمة شديدة ، ثم قال : ما لك ولهذا ؟ أقبل على عملك . قلت : لا شيء ، إنما أردت أن أستفتيه عما قال . وقد كان عندي شيء قد جمعته فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت إلى رسول اللَّه ﷺ وهو بقباء ، فدخلت عليه فقلت له : إنه قد بلغني أنك رجل صالح ، ومعك أصحاب لك غرباء ذووا حاجة . وهذا شيء كان عندي صدقة ، فرأيتكم أحق به من غيركم ، وقربته إليه ، فقال رسول اللَّه ﷺ لأصحابه :

« كُلُوا » .

وأمسك هو فلم يأكل منه . فقلت في نفسي :هذه واحدة . ثم انصرفت عنه فجمعت شيئا ، فتحول رسول اللَّه ﷺ إلى المدينة ، ثم جئته به فقلت له : رأيتك لا تأكل الصدقة ، وهذه هدية أكرمتك بها . فأكل رسول اللَّه ﷺ منها ، وأمر أصحابه فأكلوا ، وقلت في نفسي : هاتان ثنتان . ثم جئت رسول اللَّه ﷺ ببقيع الغرقد قد اتبع جنازة رجل من الأنصار ، وهو جالس فسلمت عليه ، ثم استدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم على وصف لي صاحبي ، فلما رآني رسول اللَّه ﷺ استدرت عرف أني أستثبت في شيء وصف لي ، فألقى رداءه عن ظهره ، فنظرت إلى الخاتم فعرفته ، فأكببت عليه أقبله وأبكي .

فقال لي رسول اللَّه ﷺ :

« تحوَّل » .

فتحولت فجلست بين يديه فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس ، فأَعْجَبَ رسول اللَّه ﷺ أن يسمع ذلك أصحابُه ، ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول اللَّه بدرًا وأحدًا ، ثم قال رسول اللَّه ﷺ :

« كاتِب يا سلمان » .

فكاتبت صاحبي على ثلاثمائة نخلة أحييها له ، وبأربعين أوقية .

فقال رسول اللَّه ﷺ لأصحابه :

« أَعِينُوا أَخَاكُمْ » .

فأعانوني في النخل ، الرجل بثلاثين ، والرجل بعشرين والرجل بخمس عشرة والرجل بعشر ، والرجل بقدر ما عنده ، حتى اجتمعت لي ثلاثمائة نخلة .

فقال لي رسول اللَّه ﷺ :

« اذهَبْ يا سلمانُ فآذني حتّى أكونَ أنا أضَعُها بِيَدَيَّ » .

ففقرت لها وأعانني أصحابي ، حتى أذا فرغت جئته فأخبرته ، فخرج رسول اللَّه ﷺ معي إليها فجعلت أقرب له الودي ويضعه رسول اللَّه ﷺ بيده ، حتى فرغنا ، والذي نفس سلمان بيده ما مات منه ودية واحدة ، فأديت النخل ، وبقي عليّ المال ، فأتى رسول اللَّه ﷺ بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المغازي فقال :

« ما فعل الفارسي المكاتِب ؟ » .

فدعيت له ، فقال :

« خُذْ هَذِهِ فَأَدِّ بِهِ مَا عَلَيْكَ » .

فقلت : وأين تقع هذه يا رسول اللَّه مما علي ؟

فقال : « خذها فإن اللَّه - عز وجل - سيؤدِّيها عَنك » .

فوزنت له منها ، فوالذي نفس سلمان بيده أربعين أوقية وأوفيتهم حقهم وعُتِق سلمان ، وشهد مع رسول اللّه ﷺ الخندق ثم لم يفته مشهد[١] .

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

قال الزمخشري : هذا إيذان من اللّه بحمده عند هلاك الظلمة . وقال النبي ﷺ في الحديث الذي أخرجه أحمد : « إذا مات العبدُ الفاجرُ استراحَ منه الشَّجَرَ والعبادُ والدوابُّ » . وهذا أبو جهل قد انتقم اللّه منه وكانت النهاية مؤلمة .

عن عبد اللّه بن مسعود قال : أتيت النبي ﷺ يوم بدر فقلت : إني قد قتلت أبا جهل . قال : « آللّهُ الذي لا إلهَ غيُره لأنت قتلتَه ؟ ! » .

قلت : آللّه الذي لا إله غيره لأنا قتلته . . فاستخفه الفرح ، فقال :

« مُرّ ، أرِنيه » .

فانطلقت به حتى وقفت به على رأسه . . ، فقال :

« الحمدُ اللّهِ الذي أَخزاك ، هذا فرعونُ هذه الأمَّةِ ، جرُّوه إلى القليبِ » .

قال : وقد كنت ضربته بسيفي فلم يحك فيه ، فأخذت سيفه فضربته به حتى قتلته ، فنفلني رسول اللّه سيفه[٢] .

---

(١) الطبراني في الكبير (٦ / ٢٢٢) .

(٢) الطبراني في الكبير (٩ / ٨٢) .

هذا السباق إلى الخيرات المسارع فيها !

قال أبو مسعود : كنا مع النبي ﷺ في غزاة ، فأصاب الناس جَهد ، حتى رأيت الكآبة في وجه المسلمين والفرح في وجوه المنافقين ، فلما رأى ذلك رسول اللّه ﷺ قال :

« واللّهِ لا تغيبُ الشَّمسُ حتى يأتيَكم اللّه برزقٍ » .

فعلم عثمان أن اللّه ورسوله سيصدقان ، فاشترى عثمان أربعين راحلة بما عليها من الطعام ، فوجه إلى النبي ﷺ تسعة منها ، فلما رأى ذلك النبي ﷺ قال :

« ما هذا ؟ » .

قالوا : أهدى إليك عثمان . فعرف الفرح في وجه رسول اللّه ﷺ والكآبة في وجوه المنافقين ، ورأيت النبي ﷺ قد رفع يديه حتى رؤي بياض إبطيه يدعو لعثمان ، دعاء ما سمعته دعا لأحد قبله ، ولا بعده :

« اللّهم أعطِ عثمانَ ، اللّهمّ افعَلْ بعثمانَ . . »[1] .

رفيق ملازم ؟

نعم الرفقة التي تكون على الطاعة وتحفز عليها إذا كانت بين شخصين عاديين ، وأكرم بها وأعظم إذا كانت بين نبي الأمة ﷺ وصِدِّيق الأمة أبي بكر الصديق رضي اللّه عنه ، في طريق مخوف وتتبع حثيث لكن كله هين إذا كان في اللّه .

عن عائشة قالت : بينا نحن في بيتنا إذا نحن برسول اللّه ﷺ حتى قام قائم

(١) أحمد في فضائل الصحابة (٢٨٧) ، والطبراني في الكبير (١٧ / ٢٤٩) .

الظهيرة ، ولم يكن رسول اللَّه ﷺ يخطئه أن يأتي بيت أبي بكر رضي اللَّه تعالى عنه أول النهار أو من آخره ، فلما رآه أبو بكر قال : ما جاء رسول اللَّه ﷺ في هذه الساعة إلى لأمر ! فدخل البيت ، فقال رسول اللَّه ﷺ :

« أخرِجْ مِن عِندك ؟ »

فقال : ليس عليك عين ، إنما هن بناتي . فقال :

« قد أُذِن لي في الخروجِ » .

فقال : فالصحبة يا رسول اللَّه ؟

قال :

« نِعْمَ الصُّحْبَةُ » .

قالت : فلقد رأيت أبا بكر يبكي من الفرح ، ثم خرجا حتى لحقا بالغار في ثور ، وكان عامر بن فهيرة مولدا من مولدي الأسد للحارث بن الطفيل ، وكان أخا عائشة وعبد الرحمن لأمهما ، فاشتراه أبو بكر فأعتقه ، وكان لأبي بكر منيحة من غنم تروح على أهله بمكة ، فأمر رسول اللَّه ﷺ عامرا أن يخرجها إلى ثور ، فكانا في الغار التي ذكر اللَّه - عز وجل - في القرآن ، وأرسلا بظهرهما مع رجل من بني الديل يقال له أرقد من بني عبد بن عدي من بني الديل ، وكان حليفا للعاص بن وائل السهمي ، وكان مشركا فاستأجراه ليدلهما وكان هاديا للطريق ، فجيئا بظهرهما تلك الليالي الثلاث وهما في الغار ، فكان عبد اللَّه بن أبي بكر يأتيهما كل مساء ، ويخبر بما يكون بمكة ، ثم يصبح بمكة ، وعامر بن فهيرة يريح عليهما الغنم فيحلبان ، ثم يسرح فيصبح بمكة ثم رعيان الناس ، ولا فطن له ، فلما هدأت الأصوات وبلغهما أنه قد سكت عن طلبهما جاء الدئلي بظهرهما ، فلما قدم بالظهر ليركب قال لأبي بكر :

« ما هذه الناقةُ ؟ » .

فقال : هي لك يا رسول اللَّه ، فقال :

« إنّي لا أركب بعيرًا ليس لي إلا بالثَّمنِ » .

قال : فأخذها ، وكانت أسماء بنت أبي بكر صنعت سفرة لخروجهما فشدتها بنطاقين من نطاقها ، فلما ارتحلا لم يجدوا لها عصاما تغلق به ، فحلت إحدى نطاقيها فشدتها به ، فلذلك سميت ذات النطاقين ، وركب أبو بكر راحلته ، وأردف عامر بن فهيرة ، فانطلقا وليس معهما غير عامر وابن أرقد أجيرهما ودليلهما ، فأجاز بهما أسفل مكة ، ثم جاء الساحل حتى خرج بهما من أسفل عسفان[1] .

مُلُوكٌ عَلَى الْأَسِرَّةِ

عن عطاء بن يسار أن امرأة حدثته قالت : نام رسول اللَّه ﷺ ، ثم استيقظ وهو يضحك . فقلت : تضحك مني يا رسول اللَّه ؟

قال :

« لا ، ولكنّ مِن قوم مِن أمتي يخرجون غزاةٌ في البحرِ ، مَثلُهم كمَثلِ الملوكِ على الأسرَةِ » .

ثم نام ، ثم استيقظ فقال مثل ذلك سواء ، لكن قال :

« فيرجعِونَ قليلةٌ غنائِمُهم ، مغفورًا لهم » .

قالت : فادع اللَّه أن يجعلني منهم . . فدعا لها .

قال عطاء فرأيتها في غزاة غزاها المنذر بين الزبير إلى أرض الروم ،

(١) مسند إسحاق بن راهويه (١١٦١) .

فماتت بأرض الروم[١] .

وهمة الوصول إلى الجنة من أفضل الهمم سواء كانت مع رجل أو امرأة .

همٌ كأن الشَّمسَ تخطُبُ وُدَّها والبدرُ يرسمُ في سَناها أَحرُفًا

متى كان الحق فرحنا به

عن عبد اللّه بن عتبة بن مسعود أن عبد اللّه بن مسعود أتى في رجل بهذا الخبر قال : فاختلفوا إليه شهرًا - أو قال : مرات - . قال : فإني أقول فيها : إن لها صداقا كصداق نسائها ، لا وكس ولا شطط ، وإن لها الميراث وعليها العدة ، فإن يك صوابا فمن اللّه ، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان ، واللّه ورسوله بريئان . فقام ناس من أشجع فيهم الجراح وأبو سنان فقالوا : يا ابن مسعود نحن نشهد أن رسول اللّه ﷺ قضاها فينا في بروع بنت وأشق ، وإن زوجها هلال بن مرة الأشجعي كما قضيت .

قال : ففرح عبد اللّه بن مسعود فرحًا شديدًا حين وافق قضاؤه قضاء رسول اللّه ﷺ[٢] .

عن الأشجعي قال : رأيت بن مسعود فرح فرحة ، وجاءه رجل فسأله عن رجل وهب ابنته لرجل ، فمات قال أن يدخل بها ، ولم يفرض لها الصداق ؟ .

فقال : لها الصداق كاملا ، وعليها العدة ، ولها الميراث .

فقال معقل بن سنان : سمعت رسول اللّه ﷺ قضى به في بروع بنت واشق .

قال الأشجعي : شهدت النبي ﷺ قضى بها .

(١) النسائي في الكبرى (٥٥٢٠ ، ٥٧١٨) .

(٢) نصب الراية (٤ / ٣٥٨) .

ففرح فرحا ما فرح مثلها .

وابن مسعود أتقى لربه وأشح على دينه من أن يروي عن رسول اللَّه ﷺ حديثًا ويفتي بخلافه ، ألا تراه كيف فرح الفرح الشديد حين وافقت فتياه قضاء رسول اللَّه ﷺ في بروع بنت واشق ؟ ومن كانت هذه حاله كيف يظن به خلاف ذلك ؟ .

سرور في سفر

سمعت عبد اللَّه بن مسعود قال : أقبلنا مع رسول اللَّه ﷺ من الحديبية فذكروا أنهم نزلوا دهاسا من الأرض - يعني بالدهاس : الرمل - فقال :

« من يكَلؤُنا ؟ » .

فقال بلال : أنا .

فقال رسول اللَّه ﷺ :

« إذًا تَنَم » .

قال : فناموا حتى طلعت الشمس فاستيقظ ناس ، منهم فلان وفلان ، وفيهم عمر قال : فقلنا : اهضبوا - يعني تكلموا - قال : فاستيقظ النبي ﷺ فقال :

« افعَلوا كما كُنتم تفعَلون » .

قال : ففعلنا . . وقال :

« كذلك فافْعَلوا لمن نامَ أو نسِيَ » .

وضلت ناقة رسول اللَّه ﷺ فطلبها فوجدت حبلها قد تعلق بشجرة ، فجئت بها إلى النبي ﷺ فركب مسرورًا .

وكان النبي ﷺ إذا نزل عليه الوحي اشتد ذلك عليه وعرفنا ذاك فيه . قال :

فتنحى منتبذًا خلفنا ، فجعل يغطي رأسه بثوبه ويشتد ذلك عليه ، حتى عرفنا أنه قد أنزل عليه ، فأتانا فأخبرنا أنه قد أنزل عليه : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح : ١][١] .

أبشر فالعسر علامة اليسر !

عن الحسن في قول اللّه - عز وجل - : ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح : ٥، ٦] قال : خرج النبي ﷺ يوما مسرورا فرحا وهو يضحك وهو يقول : لن يغلب عسر يسرين[٢] .

هل لك أخ يواسيك في غربتك ؟

إذا ضاقت الأمور فهل رزقك اللّه أخ تبثه أشجانك وتنقل إليه أحزانك ، وتجد في كلماته الطمأنينة ، وفي أفعاله الود والمحبة والصفاء ، فإن لم يكن فابحث عنه ولو في مشارق الأرض ومغاربها ، وكانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار رمز لكل أخوة صادقة هادفة .

عن عائشة : لما صدر السبعون من عند رسول اللّه ﷺ طابت نفسه ، وقد جعل اللّه له منعة وقوما أهل حرب وعدة ونجدة ، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين ، لما يعلمون من الخروج ، فضيقوا على أصحابه ، وتعبثوا بهم ، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى ، فشكا ذلك أصحاب رسول اللّه ﷺ ، واستأذنوه في الهجرة ، فقال :

---

(١) أحمد (١ / ٤٦٤) بلفظه ، والبزار (٥ / ٣٩٧ - ٣٩٨) وفي مجمع الزوائد (١٧٩٣) قال : رجاله موثقون .

(٢) الحاكم (٥٢٨) .

« قد أُريتُ دارَ هجَرتِكم ، أريتُ سبخةً ذاتَ نخلٍ بين لابتينِ - وهما الحرَّتان - ولو كانت السراةُ أرضُ نخل وسباخٍ لقلتُ : هي هي » .

ثم مكث أياما ، ثم خرج إلى أصحابه مسرورا ، فقال :

« قد أخبرتُ بدارِ هجرتِكم وهي يثربُ ، فمن أرادَ الخروجَ فليَخْرُج إليها » .

فجعل القوم يتجهزون ويترافقون ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك ، فكان أول من قدم المدينة من أصحاب رسول اللّه ﷺ أبو سلمة بن عبد الأسد ، ثم قدم بعد عامر بن ربيعة معه امرأته ليلى بنت أبي حثمة ، فهي أول ظعينة قدمت المدينة ، ثم قدم أصحاب رسول اللّه ﷺ أرسالا ، فنزلوا على الأنصار في دروهم ، فأووهم ونصروهم وآسوهم ، وكان سالم مولى أبي حذيفة يؤم المهاجرين بقباء قبل أن يقدم رسول اللّه ﷺ ، فلما خرج المسلمون في هجرتهم إلى المدينة كلبت قريش عليهم وحربوا ، واغتاظوا على من خرج من فتيانهم ، وكان نفر من الأنصار بايعوا رسول اللّه ﷺ في العقبة الآخرة ، ثم رجعوا إلى المدينة ، فلما قدم أو من هاجر إلى قباء خرجوا إلى رسول اللّه ﷺ بمكة ، حتى قدموا مع أصحابه في الهجرة ، فهم مهاجرون أنصاريون ، وهم ذكوان بن عبد قيس وعقبة بن وهب بن كلدة ، والعباس بن عبادة بن نضلة ، وزياد بن لبيد ، وخرج المسلمون جميعا إلى المدينة ، فلم يبق بمكة منهم إلا رسول اللّه ﷺ ، وأبو بكر وعلي ، أو مفتون محبوس ، أو مريض أو ضعيف عن الخروج[1] .

---

(١) طبقات ابن سعد (١ / ٢٢٦) .

حال مرضية عند رب البرية !

أقبل وهب بن قابوس المزني ومعه ابن أخيه الحارث بن عقبة بن قابوس بغنم لهما من جبل مزينة فوجدا المدينة خلوفا ، فسألا : أينَ الناس ؟ فقالوا : بأحد خرج رسول اللَّه ﷺ يقاتل المشركين من قريش ، فقالا : لا نسأل أثرا بعد عين ، فأسلما ثم خرجا حتى أتيا النبي ﷺ بأحد ، فيجدان القوم يقتتلون ، والدولة لرسول اللَّه ﷺ وأصحابه ، فأغاروا مع المسلمين في النهب ، وجاءت الخيل من ورائهم خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل فاختلطوا ، فقاتلا أشد القتال فانفرقت فرقة من المشركين ، فقال رسول اللَّه ﷺ :

« مَن لهذه الفرقةُ ؟ » .

فقال وهب بن قابوس : أنا يا رسول اللَّه . . . ، فقام فرماهم بالنبل حتى انصرفوا ، ثم رجع ، فانفرقت فرقة أخرى ، فقال رسول اللَّه ﷺ :

« من لهذه الكتيبةُ ؟ » .

فقال المُزَني : أنا يا رسول اللَّه ، فقام فذبها بالسيف حتى ولوا ، ثم رجع المزني ، ثم طلعت كتيبة أخرى ، فقال :

« من يقومُ لهؤلاء ؟ » .

فقال المزني : أنا يا رسولَ اللَّهَ .

فقال :

« قمُ ، وأبشرِ بالجنَّةِ » .

فقام المزني مسرورا يقول : واللَّه لا أقيل ولا أستقيل ، فقام فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسيف حتى يخرج من أقصاهم ، ورسول اللَّه ﷺ والمسلمون ينظرون إليه ، ورسول اللَّه ﷺ يقول :

« اللّهمّ ارحَمه ما زالَ كذلك » .

وهم محدقون به حتى اشتملت عليه أسيافهم ورماحهم فقتلوه ، فوجد به يومئذ عشرون طعنة برمح كلها قد خلصت إلى مقتل ، ومُثِّلَ به يومئذ أقبح المثل ، ثم قام ابن أخيه الحارث بن عقبة فقاتل كنحو من قتاله حتى قتل ، فوقف عليهما رسول اللّه ﷺ وهما مقتولان فقال :

« رضيَ اللّه عَنك ، فإنّي عَنك راضٍ » - يعني : وهبا - ، ثم قام على قدميه وقد ناله ﷺ من الجراح ما ناله ، وإن القيام ليشق عليه ، فلم يزل قائما حتى وضع المزنيَ في لحده ، عليه بردة لها أعلام حمر ، فمد رسول اللّه ﷺ البردة على رأسه فخمره وأدرجه فيها طولا ، فبلغت نصف ساقيه ، وأمرنا فجمعنا [الحرمل] فجعلناه على رجليه وهو في اللحد ، ثم انصرف رسول اللّه ﷺ فكان عمر بن الخطاب وسعد بن أبي وقاص يقولان : فما حال نموت عليها أحب إلينا من أن نلقى اللّه على حال المزني(١) .

ومن رضى رسول ﷺ رضى اللّه عنه ، وسعد فى جنات ربه ، وعلى مثل هذا يحذى السير من كل عبد ناصح باع دنياه واشترى الآخرة .

ارجع فلن نستعين بمشرك

عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت : خرج رسول اللّه ﷺ قبل بدر ، فلما كان بحرة الوبرة أدركه رجل قد كان يذكر منه جرأة ونجده ، ففرح أصحاب رسول اللّه ﷺ حين رأوه ، فلما أدركه قال لرسول اللّه ﷺ : جئت لأتبعك وأصيب معك . فقال له رسول اللّه ﷺ :

« تؤمِنُ باللّهِ ورسولهِ ؟ » .

(١) طبقات ابن سعد (٤ / ٢٤٧) .

قال : لا .

قال :

« فارجِعْ ، فلَن أستعينَ بمشرِكٍ » .

قالت : ثم مضى ، حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل ، فقال له كما قال أول مرة ، فقال له النبي ﷺ كما قال أول مرة ، قال :

« فارجِعْ ، فلن أستعينَ بمشركٍ » .

قالت : ثم رجع فأدركه بالبيداء ، فقال له كما قال أول مرة :

« تؤمِنُ باللَّهِ ورسولهِ ؟ » .

قال : نعم .

فقال له رسول اللَّه ﷺ :

« فانطلِقْ »[١] .

كُنْ يَقِظًا لِمَا يَدُورُ حَوْلَكَ

إن الأحداث التي تحيط بالمسلمين ينبغي على من يعقل أن يتفهمها ويتتبعها حتى يكون على دراية بالواقع المحيط به ، وحتى يكون على دراية بما يكاد للإسلام والمسلمين .

فعن أبي سعيد قال : لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس ، فأعجب ذلك المؤمنين فنزلت : ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ . إلى قوله : ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ [الروم : ١-٥] .

قال : ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس[٢] .

(١) مسلم (١٨١٧) ، وأحمد (٦ / ١٤٨) ، والنسائي في الكبرى (٨٨٨٦) .

(٢) الترمذي (٣١٩٢) .

عن ابن عباس رضي اللَّه تعالى عنهما قال : كان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس ؛ لأنهم أهل كتاب ، وكان المشركون يحبون أن يظهر فارس على الروم ؛ لأنهم أهل أوثان ، فذكر ذلك المسلمون لأبي بكر ، فذكر ذلك أبو بكر لرسول اللَّه ﷺ فقال له النبي ﷺ :

« أما إنهم سيُهزَمونَ » .

فذكر ذلك أبو بكر لهم ، فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلا خمس سنين ، فلم يظهروا . فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ فقال : ألا جعلت أدنى ؟

قال :

« دونَ العشرة » .

فظهرت الروم بعد قوله : ﴿الٓمٓ ۞ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۞ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۞ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ . قال : فغلبت الروم ثم غلبت بعد ذلك ، قال اللَّه تعالى : ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۞ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ . قال ففرح المسلمون بنصر اللَّه[1] .

عن شهاب بن عباد أنه سمع بعض وفد عبد القيس وهم يقولون : قدمنا على رسول اللَّه ﷺ فاشتد فرحهم بنا ، فلما انتهينا إلى القوم أوسعوا لنا فقعدنا ، فرحب بنا النبي ﷺ ودعا لنا ، ثم نظر إلينا فقال :

« من سيدُكم وزعيمُكم ؟ » .

فأشرنا بأجمعنا إلى المنذر بن عائذ .

فقال النبي ﷺ :

---

(١) البخاري ص (٤٥) في خلق أفعال العباد .

« أهذا الأَشَجُّ ؟ » . وكان أول يوم وضع عليه هذا الاسم بضربة لوجهه بحافر حمار .

قلنا : نعم يا رسول اللّه ، فتخلف بعد القوم فعقل رواحلهم ، وضم متاعهم ثم أخرج عيبته فألقى عنه ثياب السفر ، ولبس من صالح ثيابه ، ثم أقبل إلى النبي ﷺ ، وقد بسط النبي ﷺ رجله واتكأ ، فلما دنا منه الأشج أوسع القوم له ، وقالوا : ههنا يا أشج . فقال النبي ﷺ واستوى قاعدًا وقبض رجله :

« ههنا يا أشَجُّ » .

فقعد عن يمين النبي ﷺ ، فرحب به وألطفه ، وسأله عن بلاده وسمى له قرية قرية « الصفا » ، و « المشقر » ، وغير ذلك من قرى هجر ، فقال : بأبي وأمي يا رسول اللّه ، لأنت أعلم بأسماء قرانا منا ، فقال :

« إنِّي قد وطئت بلادكم وفُسِح لي فيها » .

ثم أقبل على الأنصار فقال :

« يا معشرَ الأنصارِ أكرموا إخوانَكم ، فإنّهم أشباهكم في الإسلامِ ، أشبَه شيء بكم أشعارًا وأبشارًا ، أسلموا طائعين غير مكرهين ولا موتورين ، إذ أبى قوم أن يسلموا حتّى قتلوا » .

فلما أن أصبحوا قال :

« كيف رأيتُم كرامةَ إخوانِكم لكم ، وضيافتَهم إيّاكم ؟ » .

قالوا : خير إخوان ، ألانوا فراشنا ، وأطابوا مطعمنا ، وباتوا وأصبحوا يعلمونا كتاب ربنا تبارك وتعالى ، وسنة نبينا ﷺ . فأعجبت النبي ﷺ وفرح بها ، ثم أقبل علينا رجلا رجلا ، فعرضنا عليه ما تعلمنا وعلمنا ، فمنا من علم التحيات وأم الكتاب ، والسورة والسورتين ، والسنن ، ثم أقبل علينا بوجهه فقال :

« هل معَكم مِن أزوادِكم شيءٌ ؟ » .

ففرح القوم بذلك وابتدروا رحالهم ، فأقبل كل رجل منهم معه صرة من تمر ، فوضعوها على نطع بين يديه ، فأومأ بجريدة في يده كان يختصر بها ، فوق الذارع ودون الذراعين ، فقال :

« أتسمُّونَ هذا التَّعضوضِ ؟ » .

قلنا : نعم .

ثم أومأ إلى صرة أخرى ، فقال :

« أتسمّونَ هذا الصرفان ؟ » .

قلنا : نعم .

ثم أومأ إلى صرة ، فقال :

« أتسمون هذا البرني ؟ »

قلنا : نعم .

فقال رسول اللّه ﷺ :

« أما أنَّه خيرُ تمرِكم وأنفعه لكم » .

قال : فرجعنا من وفادتنا تلك ، فأكثرنا الغرز منه ، وعظمت رغبتنا فيه ، حتى صار معظم نخلنا وتمرنا البرني ، فقال الأشج : يا رسول اللّه إن أرضنا أرض ثقيلة وخمة ، وإنا إذا لم نشرب هذه الأشربة هيجت ألواننا وعظمت بطوننا . فقال رسول اللّه ﷺ :

« لا تشربوا في الدباء والحنتمِ والنقيرِ ، وليشرَبْ أحدُكم في سقاءٍ يلاثُ على فِيه » .

فقال له الأشج : بأبي وأمي يا رسول اللّه رخص لنا في مثل هذه – وأومأ

بكفيه فقال :

« يا أشجُّ إنّي إن رخصّت لك في مثلِ هذه - وقال بكفيّه هكذا - شربتُه في مِثلِ هذه - وفرج يدَيه وبسطها ، يعني أعظَمَ منه - حتّى إذا ثمِلَ أحدُكم من شرابِهِ قام إلى ابن عمه فهزَر ساقه بالسيفِ » .

وكان في الوفد رجل من بني عضل يقال له الحارث قد هزرت ساقه في شراب لهم في بيت تمثله من الشعر في امرأة منهم ، فقام بعض أهل ذلك البيت فهزر ساقه بالسيف ، فقال الحارث : لما سمعتها من رسول اللّه ﷺ جعلت أسدل ثوبي فأغطي الضربة بساقي ، وقد أبداها اللّه تبارك وتعالى[1] .

إذا أراد اللّه أمرًا يسر أسبابه

الهداية نعمة من اللّه يتحف اللّه بها بعض عباده وهذه منه وهبة من رب العباد فاللّه يوفق لهذه الهداية من يحبه ، فالبعض يهدى بكلمة وآخر بموقف مؤثر ، وثالث لآية سمعها ، ورابع لحديث قر في قلبه لكن أن يكون سبب هداية شخص مخلوق من الجن فهذا ملفت للنظر وأدعى للغرابة ولكنها الهداية من اللّه وكفى .

عن محمد بن كعب القرظي قال : بينما عمر بن الخطاب رضي اللّه تعالى عنه قاعد في المسجد إذ مر رجل في مؤخر المسجد .

فقال رجل : يا أمير المؤمنين أتعرف هذا المار ؟

قال : لا ، فمن هو ؟

قال : سواد بن قارب ، وهو رجل من أهل اليمن من بيت فيهم شرف

(١) أحمد (٣ / ٤٣٢) (٤ / ٢٠٦) ، ومثله أو قريبا منه عند البخاري في الأدب المفرد (١١٩٨) .

وموضع ، وهو الذي أتاه رئيه بظهور النبي ﷺ .

فقال عمر : علي به ، فدعي به . فقال : أنت سواد بن قارب ؟

قال : نعم .

قال : فأنت الذي أتاك رئيك بظهور رسول اللَّه ﷺ ؟

قال : نعم .

قلا عمر : فأنت على ما كنت عليه من كهانتك ؟

فغضب غضبا شديدا وقال : يا أمير المؤمنين ما استقبلني بهذا أحد منذ أسلمت .

فقال عمر : يا سبحان اللَّه ، واللَّه ما كنا عليه من الشرك أعظم مما كنت عليه من كهانتك ، أخبرني بإتيانك رئيك بظهور رسول اللَّه ﷺ .

قال : نعم يا أمير المؤمنين ، بينا أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان ، إذ أتاني رئيي ، فضربني برجله وقال : قم يا سواد بن قارب ، فافهم واعقل إن كنت تعقل ، إنه قد بعث رسول اللَّه ﷺ من لؤي بن غالب ، يدعو إلى اللَّه وإلى عبادته ، ثم أنشأ يقول :

عجبتُ للجنِّ وتجساسِها وشدِّها العيشَ بأحلاسِها
تهوي إلى مكةَ تبغي الهُدى ما خيرُ الجنِّ كأنجاسِها
فارحل إلى الصفوةِ من هاشمٍ واسم بعينيك إلى رأسها

قال : فلم أرفع بقوله رأسا ، وقلت : دعني أنام ، فإني أمسيتُ ناعسًا .

فلما أن كانت الليلة الثانية أتاني فضربني برجله ، وقال : ألم أقل يا سواد ابن قارب قم فافهم واعقل إن كنت تعقل ، قد بعث رسول اللَّه من لؤي بن غالب يدعو إلى اللَّه وإلى عبادته ، ثم أنشأ الجني يقول :

عجبتُ للجن وتطلابِها وشدِّها العيشَ بأقتابِها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ما صادقُ الجنِّ ككذابِها
فارحل إلى الصفوةِ من هاشمٍ بين زواياها وحُجّابِها

قال : فلم أرفع رأسا .

فلما أن كانت الليلة الثالثة أتاني ، فضربني برجله ، وقال : ألم أقل لك يا سواد بن قارب أفهم واعقل إن كنت تعقل أنه قد بعث رسول اللَّه من لؤي بن غالب ، يدعو إلى اللَّه وإلى عبادته ؟ ثم أنشأ يقول :

عجبت للجنِّ وأخبارِها وشدِّها العيشَ بأكوارِها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى ما مؤمنوا الجنِّ ككفارِها
فارحل إلى الصفوةِ من هاشمٍ ليس قدّامها كأذنابِها

قال : فوقع في نفسي حب الإسلام ورغبت فيه ، فلما أصحبت شددت على راحلتي فانطلقت متوجها إلى مكة ، فلما كنت ببعض الطريق أخبرت أن النبي ﷺ قد هاجر إلى المدينة ، فأتيت المدينة فسألت عن النبي ﷺ ، فقيل لي : في المسجد فانتهيت إلى المسجد فعقلت ناقتي ودخلت ، وإذا رسول اللَّه ﷺ والناس حوله ، فقلت : اسمع مقالتي يا رسول اللَّه ، فقال أبو بكر رضي اللَّه تعالى عنه : ادنه فلم يزل حتى صرت بين يديه ، قال :

« هات فأخبرني بإيتانك رئيك ؟ » .

فقلت :

أتاني نجيي بعد هدءٍ ورقدةٍ ولم يكُ فيما قد بلوتُ بكاذبِ
ثلاثُ ليالٍ قولُه كلَّ ليلةٍ أتاك رسولُ اللَّهِ من لؤي بن غالبِ
فشمَّرت من ذيلي الإزارَ ووسطت بي الذعلب الوجناء بين السباسبِ
فأشهدُ أنّ اللَّه لا ربَّ غيرَه وأنك مأمونٌ على كلِّ غالبِ

وأنك أدنى المرسلينَ وسيلةً إلى اللَّهِ يا ابن الأكرمينَ الأطايبِ
فمرنا بما يأتيكَ يا خيرَ مَن مشي وإن كان فيما جاء شيبُ الذوائب
وكن لي شفيعا يوم لا ذي شفاعةٍ سواك بمغن عن سوادِ بن قاربِ

ففرح رسول اللَّه ﷺ وأصحابه بإسلامي فرحًا شديدًا حتى رئي في وجوههم .

فوثب عمر فالتزمه ، وقال : قد كنت أحب أن أسمع هذا منك(١) .

وما إن أقبل سواد على القرآن فما عاد يعود له رئيه من الجن وكفى بالقرآن واعظًا وكافيًا .

نصيحة للتجار

عن أبي غرزة قال : خرج علينا رسول اللَّه ﷺ ونحن نتبايع في السوق فقال :

« يا مَعْشَرَ التُّجَّارِ » !

ففرح القوم وأشرأبوا إليه ، وكنا ندعى السماسرة ، فكان أول من سمانا بالتجار . . وقال :

« إنَّ الشَّيْطانَ والإِثْمَ يحضرانِ البيعَ ، فَشَوِّبُوا بَيْعَكُمْ بِصَدَقَةٍ »(٢) .

الذي أخرجهم الجوع

إن حياة النبي ﷺ تستحق الدراسة والفحص واستخلاص العبر والعظات

(١) الحاكم (٣/ ٦٠٨) ، والطبراني في الكبير (٧/ ٩٢) ، وفي الأحاديث الطوال (٣١) .

(٢) أحمد (٤ / ٦ ، ٢٨٠) ، والترمذي (١٢٠٨) ، والنسائي في المجتبى (٧ / ١٤) ، وفي الكبرى (٤٧٤٠) ، وابن ماجة (٢١٤٥) ، والحاكم (٢ / ٥ - ٦) ، وهذا لفظ الطبراني في الكبير (١٨ / ٣٥٧) .

فحياتهم فقر-وعناء وصبر وبطولة وفروسية ورجولية ولسان حالهم .

رغيفُ خبزٍ يابسٍ تأكلُه في عافِيةْ

وكوزُ ماء باردٍ تشربُه مِن صافيةْ

وغرفةٌ ضيِّقةٌ نفسُك فيها راضيةْ

ومصحفٌ تدرسِه مستندًا لساريةْ

خيرٌ مِن السُّكنى بأبراجِ القصورِ العاليةْ

وبعد قصرٍ شاهقٍ تصلي بنارٍ حاميةْ

وعن ابن عباس أنه سمع عمر بن الخطاب يقول : خرج رسول اللّه ﷺ عند الظهر فوجد أبا بكر في المسجد ، فقال له :

« ما أخرجَك هذه الساعةَ ؟ » .

قال : أخرجني الذي أخرجك يا رسول اللّه ، وجاء عمر بن الخطاب ، فقال :

« يا ابنَ الخطابِ ما أخرجَك ؟ » .

قال : أخرجني الذي أخرجكما ، فقعد عمر ، فجعل رسول اللّه يحدثهما ، ثم قال :

« فيكما من قوةٍ تنظلقانِ إلى هذا النخلِ فتصيبانِ طعامًا وشرابًا وطلاءً ؟ » .

قلنا : نعم .

قال :

« مرّوا بنا إلى منزلِ أبي الهيثمِ بن التيهانِ الأنصاري » .

فتقدم رسول اللَّه ﷺ بين أيدينا فسلم واستأذن ثلاث مرات ، وأم الهيثم من وراء الباب تسمع سلامه ، تريد أن يزيدها رسول اللَّه ﷺ من السلام ، فلما أراد أن ينصرف خرجت أم الهيثم تسعى خلفهم فقالت : يا رسول اللَّه قد واللَّه سمعت تسليمك ، ولكني أردت أن تزيدنا من سلامك ، فقال لها رسول اللَّه ﷺ خيرا ، ثم قال :

« أين أبو الهيثمِ ؟ » .

فقالت : يا رسول اللَّه هو قريب ذهب يستعذب لنا من الماء ، ادخلوا فإنه يأتي الساعة إن شاء اللَّه ، فبسطت لهم بسطا تحت الشجرة ، وجاء أبو الهيثم ففرح بهم ، وقرت عيناه بهم ، وصعد على نخلة فصرم لهم أعذاقا .

فقال له رسول اللَّه ﷺ :

« احتسِب يا أبا الهيثم » .

فقال : يا رسول اللَّه تأكلون من بسره ومن رطبه ومن تذنوبه ، ثم أتاهم بماء فشربوا ، فقال رسول اللَّه ﷺ :

« هذا مِن النَّعيمِ الذي تُسألونَ عَنه » .

فقام أبو الهيثم ليذبح لهم شاة ، فقال له رسول اللَّه ﷺ :

« إياكَ واللبون ، اذبحْ لَنا عناقًا » .

وقامت أم الهيثم تعجن وتخبز لهم ، ووضع رسول اللَّه ﷺ وأبو بكر وعمر رضي اللَّه تعالى عنهما رؤوسهم للقائلة فأيقظوا وقد أدرك طعامهم ، فوضع الطعام بين أيديهم ، فأكلوا وشبعوا ، ورد عليهم أبو الهيثم بقية الأعذاق فأكلوا من رطبه وتذنوبه ، فسلم عليهم رسول اللَّه ﷺ ودعا لهم بخير[1] .

---

(١) الحاكم (٤ / ٢٣٤) ، والطبراني في الكبير (١٩ / ٢٥٣ - ٢٥٤) ، وأبو يعلى (٢٥٠) .

وافد أهل البحرين

عن أنس رضي اللَّه تعالى عنه قال : لما أسلم أهل البحرين قدم الجارود رضي اللَّه تعالى عنه وافدا إلى رسول اللَّه ﷺ ففرح به وقربه وأدناه .

نصر للشريعة وتذكرة وموعظة

إن هزيمة المسلمين في أُحُد ذكرى وعبرة فلو انتصر المسلمون على حال جريهم وراء الدنيا ، لكان مفتاحا لسعي الناس وراء الدنيا ، لكن والحالة التي أصيب بها المسلمون فصارت هذه الغزوة يعد من ورائها أسباب الهزيمة كما قال تعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [آل عمران : ١٥٢] .

ولما تساءل المسلمون عن سبب الهزيمة قالوا : ﴿أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران : ١٦٥] .

ثم غزا رسول اللَّه ﷺ أُحُدًا يوم السبت لسبع ليالٍ خلون من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهرًا من مهاجره ، قالوا : لما رجع من حضر بدرًا من المشركين إلى مكة وجدوا العير التي قدم بها أبو سفيان بن حرب موقوفة في دار الندوة ، فمشت أشراف قريش إلى أبي سفيان فقالوا : نحن طيبوا أنفس إن تجهزوا بربح هذه العير جيشا إلى محمد ، فقال أبو سفيان : وأنا أول من أجاب إلي ذلك ، وبنو عبد مناف معي ، فباعوها فصارت ذهبا فكانت ألف بعير ، والمال خمسين ألف دينار ، فسلم إلى أهل العير رؤوس أموالهم ، وأخرجوا أرباحهم ، وكانوا يربحون في تجارتهم للدينار دينارا ، فيهم نزلت : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ . وبعثوا

رسلهم يسيرون في العرب يدعونهم إلى نصرهم ، فأوعبوا تألب من كان معهم من العرب وحضروا ، فأجمعوا على إخراج الظعن - يعني النساء - معهم ليذكرنهم قتلى بدر فيحفظنهم فيكون أحدَّ لهم في القتال ، وكتب العباس بن عبد المطلب بخبرهم كله إلى رسول اللَّه ﷺ ، فأخبر رسول اللَّه ﷺ سعد بن الربيع بكتاب العباس ، وأرجف المنافقون واليهود بالمدينة ، وخرجت قريش من مكة ومعهم أبو عامر الفاسق ، وكان يسمى قبل ذلك « الراهب » في خمسين رجلا من قومه وكان عددهم ثلاثة آلاف رجل ، فيهم سبعمائة دراع ، ومعهم مائتا فرس ، وثلاثة آلاف بعير والظعن خمس عشرة امرأة ، وشاع خبرهم ومسيرهم في الناس ، حتى نزلوا ذا الحليفة ، فبعث رسول اللَّه ﷺ عينين له أنسًا ومُؤنِسًا ابني فضالة الظفريين ليلة الخميس لخمس ليال مضين من شوال ، فأتيا رسول اللَّه ﷺ يخبرهم ، وأنهم قد خلوا إبلهم وخيلهم في الزرع الذي بالعريض ، حتى تركوه ليس به خضراء ، ثم بعث الحباب بن المنذر بن الجموح إليهم أيضا ، فدخل فيه فحزرهم ، وجاءه بعلمهم وبات سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وسعد بن عبادة في عدة ليلة الجمعة عليهم السلاح في المسجد بباب رسول اللَّه ﷺ ، وحرست المدينة حتى أصبحوا ، ورأى رسول اللَّه ﷺ تلك الليلة كأنه في درع حصينة ، وكأن سيفه ذو الفقار قد انفصم من عند ظبته ، وكأن بقرا تذبح ، وكأنه مردف كبشا فأخبر بها أصحابه ، وأولها فقال :

« أما الدِّرعُ الحصينة فالمدينةُ ، وأما انفصام سيفي فمصيبة في نفسي ، وأما البقرُ المذبحُ فقتْلٌ في أصحابي ، وأما مردِفٌ كبشًا فكبشٌ الكتيبةُ يقتُله اللَّهُ إن شاء اللَّهُ » .

فكان رأي رسول اللَّه ﷺ أن لا يخرج من المدينة لهذه الرؤيا ، فأحب أن يوافق على مثل رأيه ، فاستشار أصحابه في الخروج ، فأشار عليه عبد اللَّه بن أبي بن سلول أن لا يخرج ، وكان ذلك رأي الأكابر من المهاجرين

والأنصار ، فقال رسول اللّه ﷺ :

« امكُثوا في المدينةِ ،واجعَلوا النساءِ والذراري في الآطامِ » .

فقام فتيان أحداث لم يشهدوا بدرا فطلبوا من رسول اللّه ﷺ الخروج إلى عدوهم ورغبوا في الشهادة ، وقالوا : اخرج بنا إلى عدونا . فغلب على الأمر الذين يريدون الخروج ، فصلى رسول اللّه الجمعة بالناس ، ثم وعظهم وأمرهم بالجد والجهاد ، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا ، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم ففرح الناس بالشخوص(١) .

وقبيل بدء المعركة يوم غزوة أُحُد أقبل رسول اللّه ﷺ يصف أصحابه ويسوي الصفوف على رجليه وجعل ميمنة وميسرة ، وعليه درعان ومغفر وبيضة ، وجعل أُحُدا خلف ظهره ، واستقبل المدينة ، وجعل عينين جبلا بقناة عن يساره ، وجعل عليه خمسين من الرماة ، واستعمل عليهم عبد اللّه ابن جبير ، وأوعز إليهم فقال :

« قُوموا على مصافِّكم هذه فاحموا ظهورَنا ، فإن رأيتمونا قد غنِمنا فلا تُشْرِكونا ، وإن رأيتمونا نُقْتَلُ فلا تَنْصرونا » .

وأقبل المشركون قد صفوا صفوفهم واستعملوا على الميمنة خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل ، ولهم مجنبتان مائتا فرس ، وجعلوا على الخيل صفوان بن أمية - ويقال : عمرو بن العاص - وعلى الرماة عبد اللّه بن أبي ربيعة ، وكانوا مائة رامٍ ، ودفعوا اللواء إلى طلحة بن أبي طلحة ، وسأل رسول اللّه ﷺ :

« مَن يحمِلُ لواءِ المشركين ؟ » .

قيل : عبد الدار .

---

(١) طبقات ابن سعد (٢ / ٣٧ - ٣٨) .

قال :

« نحن أحقُّ بالوفاءِ مِنهم ، أين مصعبُ بُن عميرٍ ؟ » .

قال هأنذا .

قال :

« خُذ اللواءَ » .

فأخذه مصعب بن عمير ، فتقدم به بين يدي رسول اللّه ﷺ ، فكان أول من أنشب الحرب بينهم أبو عامر الفاسق ، وطلع في خمسين من قومه ، فنادى : أنا أبو عامر . فقال المسلمون : لا مرحبا بك ولا أهلا يا فاسق . قال : لقد أصاب قومي بعدي شر ، ومعه عبيد قريش ، فتراموا بالحجارة هم والمسلمون حتى ولى أبو عامر وأصحابه ، وجعل نساء المشركين يضربن بالدفوف والغرابيل ويحرضن يذكرنهم قتلى بدر ويقلن :

نحنُ بناتُ طارقٍ نمشي على النّمارِق

إن تُقبِلوا نُعانِق أو تُدبروا نفارِق

فراقٌ غيرُ موامق

ودنا القوم بعضهم من بعض ، والرماة يرشقون خيل المشركين بالنبل ، فتولى هوازن فصاح طلحة بن أبي طلحة صاحب اللواء : من يبارز ؟ فبرز له علي بن أبي طالب رضي اللّه تعالى عنه ، فالتقيا بين الصفين ، فبدره علي فضربه على رأسه حتى فلق هامته ، فوقع ، وهو كبش الكتيبة ، فسر رسول اللّه بذلك ، وأظهر التكبير ، وكبر المسلمون وشدوا على كتائب المشركين يضربونهم ، حتى نغضت صفوفُهم[١] .

وعن عبيد اللّه بن عتبة عن ابن عباس أنه قال : ما نصر اللّه تبارك وتعالى

---

(١) طبقات ابن سعد (٢ / ٤٠) .

النبي ﷺ في موطن كما نصر يوم أُحُد .

قال : فأنكرنا ذلك ، فقال ابن عباس : بيني وبين من أنكر ذلك كتاب اللَّه تبارك وتعالى ، أن اللَّه – عز وجل – يقول يوم أحد : ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [آل عمران : ١٥٢] . يقول ابن عباس : والحس : القتل .

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ إلى قوله : ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ . وإنما عنى بهذا الرماة ، وذلك أن النبي ﷺ أقامهم في موضع ، ثم قال :

« احْمُوا ظُهُورَنا ، فَإِنْ رَأَيْتُمُونا نُقْتَلُ فَلَا تَنْصُرُونا ، وإِنْ رَأَيْتُمُونا قَدْ غَنِمنا فَلَا تُشرِكونا » .

فلما غنم النبي ﷺ وأباحوا عسكر المشركين أكب الرماة جميعا فدخلوا في العسكر ينهبون ، وقد التفت صفوف أصحاب رسول اللَّه ﷺ فهم كذا – وشبك بين أصابع يديه – والتبسوا فلما أخل الرماة تلك الخلة التي كانوا فيها ، دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب النبي ﷺ ، فضرب بعضهم بعضا ، والتبسوا ، وقتل من المسلمين ناس كثير ، وقد كان لرسول اللَّه ﷺ وأصحابه أول النهار ، حتى قتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة ، وجال المسلمون جولة نحو الجبل ، ولم يبلغوا حيث يقول الناس الغار ، إنما كانوا تحت المهراس ، وصاح الشيطان : قتل محمد ، فلم يشك فيه أنه حق ، فما زلنا كذلك ما نشك أنه قد قتل ، حتى طلع رسول اللَّه ﷺ بين السعدين نعرفه بتكفئه إذا مشى ، قال : ففرحنا كأنه لم يصبنا ما أصابنا ، قال : فرقى نحونا ، وهو يقول :

« اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ دموا وَجْهَ رَسُولِهِ » .

قال : ويقول مرة أخرى :

« اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَعْلُونَا » .

حتى انتهى إلينا فمكث ساعة ، فإذا أبو سفيان يصيح في أسفل الجبل : أعل هبل (مرتين) - يعني آلهته - أين ابن أبي كبشة ؟ أين ابن أبي قحافة ؟ أين ابن الخطاب ؟ فقال عمر : يا رسول اللّه ألا أجيبه ؟ قال :

« بلى » .

فلما قال : أعل هبل ، قال عمر : اللّه أعلى وأجل . فقال أبو سفيان : يا ابن الخطاب إنه قد أنعمت عينها فعاد عنها - أو : فعال عنها - فقال : أين ابن أبي كبشة ؟ أين ابن أبي قحافة ؟ أين ابن الخطاب ؟ فقال عمر : هذا رسول اللّه ﷺ ، وهذا أبو بكر ، وها أنا ذا عمر . فقال أبو سفيان ، يوم بيوم بدر ، والأيام دول وإن الحرب سجال . فال عمر : لا سواء ، قتلانا في الجنة ، وقتلاكم في النار . قال : إنكم لتزعمون ذلك ، لقد خبنا إذا وخسرنا ، ثم قال أبو سفيان : أما إنكم سوف تجدون في قتلاكم مثلى ، ولم يكن ذاك عن رأي سراتنا . قال : ثم أدركته حمية الجاهلية ، فقال : أما إنه قد كان ذاك لم يكرهه[1] .

---

(١) أحمد (١ / ٢٨٧) ، والحاكم (٢ / ٢٩٦) ، والطبراني (١٠ / ٣٠١) .

اللحظات الأخيرة في حياة خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه

إن اللحظات الأخيرة في حياة هذا الخليفة الراشد تعطينا مزيجا عذبا بين تحمل المسؤولية وبين بنود الرجولية السامية ، ونصيحة قوية للشباب ومن لطيف ما يقوي باعث النخوة في رجال الإسلام وشبابه ، وعربهم وعجمهم قول الرافعي - رحمه اللّه - في رسالة بعنوان « يا شباب العرب » : يقولون : إن في شباب العرب شيخوخة الهمم والعزائم ؛ فالشباب يمتدون في حياة الأمم وهم ينكمشون ، وإن اللّهو قد خف بهم حتى ثقلت عليهم حياة الجد فأهملوا الممكنات فرجعت كالمستحيلات ، وإن الهزل قد هون عليهم كل صعبة فاختصروها ، فإذا هزئوا بالعدو في كلمة فكأنما هزموه في معركة ، وإن الشاب منهم يكون رجلًا ورجولة جسمه تحتج على طفولة أعماله .

ويزعمون أن هذا الشباب قد تمت الألفة بينه وبين أغلاطه ، فحياته حياة هذه الأغلاط فيه ، وأنه مقلد للغرب في الرذائل خاصة ، وبهذا جعله الغرب كالحيوان محصورًا في طعامه ومشرابه ولذَّاته .

يا شبابَ العربِ ، مَنْ غيرُكم يُكَذِّبُ ما يقولون ويزعمون ؟ مَنْ غيركم يجعل النفوس قوانين صارمة تكون المادة الأولى فيها قَدَرْنَا[1] لأننا أردنا ؟ ألا إن المعركة بيننا وبين الاستعمار معركة نفسية ، إن لم يُقتل فيها الهزل قُتِل فيها الواجب ، والشباب هو القوة فالشمس لا تملأ النهار في آخره كما تملؤه في أوله .

يا شباب العرب اجعلوا رسالتكم : إما أن يحيا الشرق عزيزًا ، وإما أن يموتوا[2] .

---

(١) تمكن منه .

(٢) الأدب العربي ص (٤٥) .

فياليت الرجال يتحملون المسؤلية في حياتهم كما تحملها عمر في حياته وقبيل وفاته .

عن عبد اللّٰه بن عبيد بن عمير أن عمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنه لما طعن قال له الناس : يا أمير المؤمنين لو شربت شربة ؟

فقال : اسقوني نبيذًا[١] وكان من أحب الشراب إليه ، قال : فخرج النبيذ من جرحه مع صديد الدَّم ، فلم يتبين لهم ذلك أنه شرابه الذي شرب . فقالوا : لو شربت لبنًا ، . . فأتى به لما شرب اللبن خرج من جرحه ، فلما رأى بياضه بكى وأبكى من حوله من أصحابه .

فقال : هذا حين لو أن لي ما طلعت عليه الشمس لافتديت به من هول المطلع .

قالوا : وما أبكاك إلا هذا ؟ !

قال : ما أبكاني غيره .

فقال له ابن عباس : يا أمير المؤمنين ، واللّٰه إن كان إسلامك لنصرًا ، وإن كانت إمامتُك لفتحًا ، واللّٰه لقد ملأت إمارتك الأرض عدلًا ، ما من اثنين يختصمان إليك إلَّا انتهيا إلى قولك .

فقال عمر : أجلسوني ، فلما جلس قال لابن عباس : أعد علي كلامك .

فلما أعاد عليه قال : أتشهد لي بذلك عند اللّٰه يوم تلقاه ؟

فقال ابن عباس : نعم .

قال : فَفَرِحَ عُمَرُ بذلك وأعجبه[٢] .

---

(١) تمر منقوع في الماء .

(٢) طبقات ابن سعد (٣ / ٣٥٤) .

وفي رواية عن عبد اللَّه بن عمر قال : لما طعن أبو لؤلؤة عمر طعنه طعنتين فظن عمر أن له ذنبا في الناس لا يعلمه ، فدعا ابن عباس وكان يحبه ويدنيه ويستمع منه ، فقال له : أحب أن نعلم عن ملأ من الناس كان هذا ، فخرج ابن عباس فجعل لا يمر بملأ من الناس إلا وهم يبكون ، فرجع إليه فقال : يا أمير المؤمنين ما أتيت على ملأ من المسلمين إلا وهم يبكون كأنما فقدوا اليوم أبكار أولادهم .

فقال : من قتلني ؟

قال : أبو لؤلؤة المجوسي عبد المغيرة بن شعبة .

قال ابن عباس : فرأيت البشر في وجهه ، فقال : الحمد اللَّه الذي لم يبتلني بقتل أحد يحاجني بقول : لا إله إلا اللَّه . أما إنى كنت قد نهيتكم أن تجلبوا إلينا من العلوج أحدًا فعصيتموني . ثم قال : ادعوا لي إخواني .

قالوا : ومن ؟

قال : عثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، فأرسل إليهم ، ثم وضع رأسه في حجري ، فلما جاءوا قلت : هؤلاء قد حضروا .

فقال : نعم نظرت في أمر المسلمين فوجدتكم أيها الستة رؤوس الناس وقادتهم ، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، ما استقمتم يستقيم أمر الناس ، وإن يكن اختلاف يكن فيكم ، فلما سمعت ذكر الاختلاف والشقاق ظننت أنه كائن ؛ لأنه قلما قال شيئًا إلا رأيته ، ثم نزف الدم فهمسوا بينهم ، حتى خشيت أن يبايعوا رجلا منهم .

فقلت : إن أمير المؤمنين حي بعد ، ولا يكون خليفتان ينظر أحدهما إلى الآخر .

فقال : احملوني . فحملناه ، فقال : تشاوروا - ثلاثا - ويصلي بالناس صهيب .

قال : من نشاور يا أمير المؤمنين ؟

فقال : شاوروا المهاجرين والأنصار وسراة من هنا من الأجناد . ثم دعا بشربة من لبن ، فشرب ، فخرج بياض اللبن من الجرحين فعرف أنه الموت .

فقال : الآن لو أن لي الدنيا كلها لافتديت بها من هول المطلع ، وما ذاك والحمد للَّه إن أكون رأيت إلا خيرًا .

فقال ابن عباس : وأن قلت ذلك فجزاك اللَّه خيرًا ، أليس قد دعا رسول اللَّه ﷺ أن يعز اللَّه بك الدين والمسلمين إذ يخافون بمكة ؟ فلما أسلمت كان إسلامك عِزًّا ، وظهر بك الإسلام ورسول اللَّه ﷺ وأصحابه ، وهاجرت إلى المدينة فكانت هجرتك فتحًا ، ثم لم تغب عن مشهد شهده رسول اللَّه ﷺ من قتال المشركين من يوم كذا ويوم كذا ، ثم قُبض رسول اللَّه ﷺ وهو عنك راض ، فوازرت الخليفة بعده على منهاج رسول اللَّه ﷺ فضربت من أدبر بمن أقبل ، حتى دخل الناس في الإسلام طوعًا أو كرهًا ، ثم قبض الخليفة وهو عنك راض ، ثم وليت بخير ما ولي الناس ، مَصَّرَ اللَّهُ بِكَ الأمصارَ ، وجبى بك الأموال ، ونفى بك العدو ، وأدخل اللَّه بك على كل أهل بيت من توسعهم في دينهم وتوسعهم في أرزاقهم ، ثم ختم لك بالشهادة ، فهنيئا لك .

فقال : واللَّه إن المغرور من تغررونه ، ثم قال : أتشهد لي يا عبد اللَّه عند اللَّه يوم القيامة ؟

فقال : نعم .

فقال : اللَّهم لك الحمد ، ألصق خدي بالأرض يا عبد اللَّه بن عمر ، فوضعته من فخذي على ساقي .

فقال : ألصق خدي بالأرض ، فترك لحيته وخده وقع بالأرض ، فقال : ويلك وويل أمك يا عمر إن لم يغفر اللَّهُ لك ، ثم قبض - رحمه اللَّه -[١] .

بشريات لفتح قصور كسرى وقيصر والشام

أخرج البيهقي من طريق كثير بن عبد الرحمن بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده في خبر حفر الخندق قال : خط رسول اللَّه ﷺ الخندق لكل عشرة أناس عشرة أذرع ، وفيه : فمرت بنا صخر بيضاء كسرت معاويلنا ، فأردنا أن نعدل عنها ، فقلنا : حتى نشاور رسول اللَّه ﷺ ، فأرسلنا إليه سلمان . . . وفيه : فضرب ضربة صدع الصخرة وبرق منها برقة ، فكبر وكبر المسلمون ، وفيه : رأيناك تكبر فكبرنا بتكبيرك ، فقال :

« إنّ البرقَ الأولى أضاءَت لها قصورُ الشام ، فأخبرني جبريلُ أنّ أمّتي ظاهرةٌ عَليهم » .ففرح المسلمون واستبشروا[٢] .

أبشر بخير يوم طلعت عليك فيه الشمس يوم توبة اللَّه عليك

يقول ابن الجوزي - رحمه اللَّه - عن التوبة في صيد الخاطر : الدنيا حرب والناس فيها صفوف ، والشياطين يرمونهم بنبال الهوى ويضربونهم بسيوف الذِّلة والشهوة ، وذلك عن طريق الوسوسة ، والمنافقون قتلى صرعى في أول الحرب مع أول رمية : ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ﴾ [الحشر : ١٩] وهو القتل بعينه ، أما المتقون فهم في جَهد جهيد من المجاهدة ، ولابد مع طول

(١) الطبراني في الأوسط (٥٨٣) ، وعند ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٩٣) مختصرًا .
(٢) فتح الباري (٧ / ٣٩٧) .

الوقوف من جراح أي زلل ووقوع في المعصية ، فهم يجرحون ويداوون ، إلا أنهم من القتل محفوظون ، بل الجراحة في الوجه عيب وشين : ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور : ٦٣]. فإن رأيت زَلَّةً فامحها بتوبة ، أو خرقًا فارقعه باستغفار ، وإذا أصبحت فتأمل ما مضى من ليلك وإذا أمسيت فتدبر ما مضى من يومك(١) .

وها هي لحظات يرويها كعب بن مالك رضي اللَّه عنه في توبته : عن كعب بن مالك رضي اللَّه عنه في حديثه حين تخلف عن رسول اللَّه ﷺ في غزوة تبوك قال كعب : لم أتخلف عن رسول اللَّه ﷺ في غزوة غزاها قط ، إلا في غزوة تبوك ، غير أني تخلفت في غزوة بدر ، ولم يعاتب أَحَدًا تخلف عنه ، إنما خرج رسول اللَّه ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش ، حتى جمع اللَّه بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول اللَّه ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحب أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها ، وكان من خبري حين تخلفت عن رسول اللَّه ﷺ في غزوة تبوك ، أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة ، واللَّه ما جمعت قبلها راحلتين قط ، حتى جمعتهما في تلك الغزوة ، فغزاها رسول اللَّه ﷺ في حر شديد ، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا ، واستقبل عدوًا كثيرًا ، فجلا للمسلمين أمرهم ، ليتأهبوا أهبة غزوهم ، فأخبرهم بوجههم الذي يرد ، والمسلمون مع رسول اللَّه ﷺ كثير ، ولا يجمعهم كتابٌ حافظ - يريد بذلك الديوان - قال كعب : فقل رجل يريد أن يتغيب يظن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي من اللَّه - عز وجل - ، وغزا رسول اللَّه ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، فأنا إليها أصعر فتجهز رسول اللَّه ﷺ ، والمسلمون معه ،وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض

---

(١) عن الوصايا النبوية للدكتور / حامد الطاهر ص (٦٣٥) .

شيئًا ، وأقول في نفسي : أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد ، فأصبح رسول اللّه غاديًا والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازي شيئًا ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئًا ، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا ، وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل فأدركهم ، فيا ليتني فعلت ، ثم لم يقدر ذلك لي ، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول اللّه ﷺ يحزنني أني لا أرى لي أسوة ، إلا رجلًا مغموصًا عليه في النفاق ، أو رجلًا ممن عذَر اللّهُ من الضعفاء ، ولم يذكرني رسول اللّه ﷺ حتى بلغ تبوكًا ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك :

« ما فعَل كعبُ بن مالكٍ ؟ » .

قال رجل من بني سلمة : يا رسول اللّه حبسه برداه ، والنظر في عطفيه !

فقال له معاذ بن جبل : بئس ما قلتَ ، واللّه يا رسول اللّه ما علمنا عليه إلا خيرًا . فسكت رسول اللّه ﷺ ، فينما هو على ذلك رأى رجلا مبيضا يزول به السراب ، فقال رسول اللّه ﷺ :

« كُن أبا خيثمةَ » .

فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري ، وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون ، فقال كعب بن مالك رضي اللّه عنه : فلما بلغني أن رسول اللّه ﷺ قد توجه قافلا من تبوك حضرني بثي فطفقت أتذكر الكذب وأقول : بم أخرج من سخطه غدًا ؟ وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي ، فلما قيل لي : إن رسول اللّه ﷺ قد أظل قادمًا زاح عني الباطل ، حتى عرفتُ أني لن أنجو منه بشيء أبدًا ، فأجمعت صدقه ، وصبَّح رسول اللّه ﷺ قادمًا ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ، ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلًا ، فقبل منهم رسول اللّه ﷺ علانيتهم ، وبايعهم واستغفر لهم ،

ووكل سرائرهم إلى اللَّه ، حتى جئت ، فلما سلمتُ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المغضب ، ثم قال :

« تعال » .

فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي :

« ما خلّفك ؟ ألم تَكُن قد ابتَعت ظهرَك ؟ » .

قلت : يا رسول اللَّه إني واللَّه لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلا ، ولكني واللَّه لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن اللَّه أن يسخطك علي ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عقبى اللَّه ، واللَّه ما كان لي عذر ، واللَّه ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك .

فقال رسول اللَّه ﷺ :

« أما هذا فقد صدق ، فَقُم حتّى يقضِيَ اللَّهُ فيك » .

فقمت وثار رجال من بني سلمة فأتبعوني ، فقالوا لي : واللَّه ما علمناك أذنبت ذنبا قبل هذا ، لقد عجزت في أن لا تكون اعتذرت إلى رسول اللَّه ﷺ بما أعتذر به إليه المخلفون ، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول اللَّه ﷺ لك . قال : فواللَّه ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول اللَّه ﷺ فأكذب نفسي . ثم قلت لهم : هل لقي هذا معي أحد ؟ قالوا : نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك . قلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن ربيعة العامري ، وهلال بن أمية الواقفي .

فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة ، فمضيت حين ذكروهما لي .

ونهى رسول اللَّه ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف

عنه ، فاجتَنَبنا الناس ، وتغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض ، فما هي بالأرض التي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة وأطوف في الأسواق ، ولا يكلمني أحد ، وآتي رسول اللَّه ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأقول في نفسي : هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ؟ ثم أصلي قريبا منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي ، وإذا التفت نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال ذلك علي من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة - وهو ابن عمي وأحب الناس إلي - فسلّمت عليه ، فواللَّه ما رد عليَّ السلام ، فقلت له : يا أبا قتادة أنشدك باللَّه هل تعلمن أني أحب اللَّه ورسوله ؟ فسكت ، فعدت فناشدته ، فسكت ، فعدت فناشدته ، فقال : اللَّه ورسوله أعلم . ففاضت عيناي ، وتوليت حتى تسورت الجدار ، فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطيٌّ من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له إلي ، حتى جاءني فدفع إلي كتابا من ملك غسان - وكنت كاتبا - فقرأته فإذا فيه : أما بعد ، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك اللَّه بدار هوان ولا مضيعة ، فألحق بنا نواسك . فقلت حين قرأتها : وهذه أيضا من البلاء ، فتيامت بها التنور فسجرتها بها ، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحي إذا رسول رسول اللَّه ﷺ يأتيني ، فقال : إن رسول اللَّه ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك . فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : لا بل اعتزلها فلا تقربنها . فأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك . فقلت لامرأتي : الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي اللَّه في هذا الأمر ، فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول اللَّه ﷺ ، فقالت له : يا رسول اللَّه إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال :

« لا ، ولكن لا يقربّنك » .

فقالت : إنه واللّه ما به حركة إلى شيء ، وواللّه ما زال يبكي ، منذ كان من أمره ما كان ، وإلى يومه هذا .

فقال لي بعض أهلي : لو أستأذنت رسول اللّه في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ؟ فقلت : لا أستأذن فيها رسول اللّه ﷺ ، وما يدريني ماذا يقول رسول اللّه ﷺ إذا استأذنته فيها ، وأنا رجل شاب ؟

قال : فلبثت بذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا ، ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر اللّه - عز وجل - منا قد ضاقت علي نفسي ، وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أَوْفَى على سلع يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر . فخررت ساجدا ، وعرفت أنه قد جاء فرج اللّه ، فآذن رسول اللّه الناس بتوبة اللّه علينا ، حتى صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا ، فذهب قِبَلَ صَاحِبَيَّ مبشرون ، وركض رجل إلى فرسا وسعى ساع من أسلم قبلي وأوفى الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني فنزعت له ثوبَيَّ فكسوتهما إياه ببشارته ، واللّه ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما فانطلقت أتأمم رسول اللّه ﷺ يتلقاني الناس فوجًا فوجًا يهنوني بالتوبة ،ويقولون : لتهنئك توبة اللّه عليك حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول اللّه ﷺ جالس في المسجد ، وحوله الناس ، فقام طلحة بن عبيد اللّه يهرول حتى صافحني وهنأني ، واللّه ما قام رجل من المهاجرين غيره ، فكان كعب لا ينساها لطلحة ، قال كعب : فلما سلّمت على رسول اللّه ﷺ قال : « وهو يبرق وجهه من السرور » .

وفي رواية : فلما سلمت على رسول اللّه ﷺ وهو يبرق وجهه من

السرور ، وكان رسول اللَّه إذا سُره استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه(١) ويقول : « أبشر بخيرِ يوم مرَّ عليك منذُ ولدَتك أمُك » ، فقلت : أمن عندك يا رسول اللَّه أم من عندَ اللَّه ؟ فقال :

« لا ، بل مِن عندِ اللَّهِ » .

وكان رسول اللَّه ﷺ إذا سر استنار وجهه وكأن وجهه قطعة قمر ، قال : وكنا نعرف ذلك ، فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول اللَّه إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى اللَّه وإلى رسوله ﷺ .

فقال رسول اللَّه ﷺ :

« أمسِك بعضَ مالِك ، فهو خيرٌ لك » .

فقلت : فإني أُمسِك سهمي الذي بخيبر . وقلت : يا رسول اللَّه إن اللَّه إنما أنجاني بالصدق ،وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت . قال : فواللَّه ما علمت أن أحدا من المسلمين أبلاه اللَّه في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول اللَّه ﷺ إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني اللَّه به ، واللَّه ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول اللَّه ﷺ إلى يومي هذا ، وإني لأرجو أن يخفظني اللَّه فيما بقي ، فأنزل اللَّه - عز وجل - : ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ حتى بلغ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾(٢) .

---

(١) مستدرك الحاكم (٢ / ٦٠٥) .

(٢) التوبة (١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩) .

قال كعب : واللّه ما أنعم اللّه علي من نعمة قط بعد إذ هداني اللّه للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول اللّه ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، إن اللّه قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد ، وقال اللّه تعالى : ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾[(١)] .

قال كعب : كنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول اللّه ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول اللّه ﷺ أمرنا حتى قضى اللّه فيه ، فبذلك قال اللّه - عز وجل - : ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾[(٢)] . وليس الذي ذكر اللّه مما خلفنا تخلفنا عن الغزو وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حُلِّف له واعتذر إليه فقبل منه[(٣)] .

إذا سُرَّ استنار وجهه كالقمر

قال الحافظ في « الفتح » : قوله : « استنار وجهه كأنه قطعة قمر » أي الموضع الذي يبين فيه السرور ، وهو جبينه ، فلذلك قال : « قطعة قمر » ولعله كان حينئذ ملثما ، ويحتمل أن يكون يريد بقوله : « قطعة قمر » القمر نفسه .

ووقع في حديث جبير بن مطعم عند الطبراني : التفت إلينا النبي ﷺ بوجهه مثل شقة القمر[(٤)] . فهذا محمول على صفته عند الالتفات ، وقد

(١) التوبة (٩٥ ، ٩٦) .

(٢) التوبة (١١٨) .

(٣) البخاري (٣٥٥٦ ، ٤٤١٨) ، ومسلم (٢٧٦٩) .

(٤) الطبراني في الكبير (٢ / ١٣٦) ، وأخرجه عن كعب (١٩ / ٦٩) بهذا اللفظ .

أخرج الطبراني حديث كعب بن مالك من طرق في بعضها : « كأنه دارة قمر »[١] .

وقد ذكرت في صفة النبي ﷺ بذلك توجيهات ، ومنها : أنه للإشارة إلى موضع الاستنارة وهو الجبين ، وفيه يظهر السرور كما في حديث عائشة : « مسرورا تبرق أساريرُ وجهه » .

فكأن التشبيه وقع على بعض الوجه ، فناسب أن يشبَّهَ ببعض القمر ، قوله : (وكنا نعرف ذلك منه) وفيه ما كان النبي ﷺ عليه من كمال الشفقة على أمته والرأفة بهم والفرح بما يسرهم .

سنة حسنة ؟ !

عن جرير بن عبد اللَّه قال : جاء ناس من الأعراب إلى رسول اللَّه ﷺ عليهم الصوف ، فرأى سوء حالهم قد أصابتهم حاجة ، فحث الناس على الصدقة فأبطئوا عنه حتى رؤي ذلك في وجهه ، قال : ثم إن رجلا من الأنصار جاء بصرة من ورق ، ثم جاء آخر ، ثم تتابعوا ، حتى عرف السرور في وجهه . . وفي رواية : حتى رأيت وجه رسول اللَّه ﷺ يتهلل كأنه مذهبة ، فقال رسول اللَّه :

« مَن سنَّ في الإسلامِ سنَّةً حسنةً ، فعُمِل بها بعده ، كتب له مثلُ أجرِ مَن عمل بها ، ولا ينقُصُ من أجررهم شيءٌ ، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئةً ، فعُمل بها بعده ، كُتب عليه مثل وِزرِ من عملِ بها ، ولا ينقص من أوزارِهم شيءٌ »[٢] .

---

(١) الطبراني في الكبير (١٩ / ٦٩) .

(٢) مسلم (١٠١٧) .

وفي رواية عن جرير بن عبد اللَّه البجلي : أن رجلا من الأنصار جاء النبي ﷺ بصرة من ذهب يملأ ما بين أصابعه فقال : هذه في سبيل اللَّه ، ثم قام أبو بكر رضي اللَّه تعالى عنه ، ثم قام عمر رضي اللَّه تعالى عنه فأعطاه ، ثم قام المهاجرون والأنصار فأعطوا ، فأشرق وجه رسول اللَّه ﷺ حتى رأينا الإشراق في وجنته ، ثم قال النبي ﷺ :

« من استنَّ سنةً صالحة في الإسلام فعُمِل بها بعدَه كان له مثلُ أجورِهم ، من غيرِ أن ينقُصَ من أجورِهم شيءٌ ، ومن سنَّ في الإسلامِ سنةً سيئةً فعُمِل بها بعده كان عليه مثل أوزارِهم مِن غيرِ أن ينقُصَ من أوزارِهم شيءٌ »[1] .

أكثروا من الصلاة على النبي ﷺ

عن عبد اللَّه بن أبي طلحة عن أبيه أن رسول اللَّه ﷺ جاء ذات يوم والسرور يرى في وجهه ، فقالوا : يا رسول اللَّه إنا لنرى السرور في وجهك ؟!

فقال : « إنه أتاني ملك فقال : يا محمد أما يرضيك أن ربك - عز وجل - يقول : أنه لا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشرا ، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشرا ؟ قال : « بَلَى » .

وفي رواية عن عبد اللَّه بن أبي طلحة عن أبيه أن النبي ﷺ جاء ذات يوم والبشر يرى في وجهه . . . فذكره[2] .

وفيه حَثٌّ على الصلاة والسلام عليه ، وتعظيم له صلى اللَّه تعلى عليه

---

(١) أحمد (٤ / ٣٦٠) ، والدارمي (٥١٤) ، والطبراني (٢ / ٣٤٤) .

(٢) أحمد (٤ / ٢٩ ، ٣٠) ، والنسائي في المجتبى (٣ / ٤٤) ، وفي الكبرى (١٢٠٦ ، ١٢١٨) ، والدارمي (٢٧٧٣) .

وسلم ، وإجلال لمنزلته ، حيث سخر الملائكة الكرام لهذا الشأن الفخم .
وقوله : (والبِشر) بكسر الباء اسم من الاستبشار أي الطلاقة وآثار السرور في وجهه[١] .

وعن عبد الرحمن بن عوف أن رسول اللَّه ﷺ قال :

« إني لقِيتُ جِبرائيلَ عليه السلامُ فبشَّرني وقال : إنَّ ربَّك يقولُ لك : من صلّى عليك صلَّيتُ عَليه ، ومن سلَّم عَليك سلَّمتُ عَليه ، فسجدتُ للَّهِ شُكرًا »[٢] .

فقه الأسماء

عن عبد اللَّه بن بريدة عن أبيه قال : كان رسول اللَّه ﷺ لا يتطير من شيء ، ولكنه كان إذا أراد أن يأتي امرأة سأل عن اسمها ، فإن كان حسنا رؤي البشر في وجهه ، وإن كان قبيحا رؤي ذلك وفي وجهه ، وكان إذا بعث رجلا سأل عن اسمه ، فإن كان حسن الاسم رؤي البشر في وجهه ، وإن كان قبيحًا رؤي ذلك في وجهه[٣] .

طمع في الجنة !

عن عمرو بن مالك الجنب أن فضالة بن عبادة وعبادة بن الصامت حدثاه أن رسول اللَّه ﷺ قال :

« إذا كان يومُ القيامِة وفرغ اللَّه تعالى مِن قضاءِ الخلقِ ، فيبقى رجلان ،

---

(١) حاشية السندي على سنن النسائي (٣ / ٤٤) .
(٢) الحاكم (١ / ٥٥٠) ، والبيهقي (٣٧٥٣) .
(٣) أحمد (٥ / ٣٤٧) ، وابن حبان (٥٨٢٧) .

فيؤمر بها إلى النار ، فيلتفتُ أحدُهما ، فيقول الجبار تعالى :ردوه ، فيردونه . فيقول اللّه له : لم التفت ؟ فيقول : إني كنت أرجو أن تدخلني الجنة ، قال : فيؤمَرُ به إلى الجنةِ ، فيقولُ لقد أعطاني اللّه - عز وجل - حتى لو أني أطعمتُ أهل الجنة ما نقص ذلك ما عندي شيئًا » .

قال : فكان رسول اللّه ﷺ إذا ذكره يُرى السرور في وجهه[١] .

أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟

عن أبي رافع قال : خرج علينا رسول اللّه ﷺ مشرق اللون فعرف السرور في وجهه ، فقال :

« رأيتُ ربِّي في أحسنَ صورةٍ ، فقال لي : يا محمدُ أتدري فيم يختصِمُ الملأُ الأعلى ؟ فقلت : يا ربِّ في الكفّاراتِ ، قال : وما الكفّاراتُ ؟ قلت : إبلاغُ الوضوءِ أماكِنَه على الكراهيّاتِ ، والمشيُ على الأقدامِ إلى الصلواتِ ، وانتظارُ الصلاةِ بعدَ الصلاةِ »[٢] .

سيدا شباب أهل الجنة

عن حذيفة رضي اللّه تعالى عنه قال : رأينا في وجه رسول اللّه تباشير السرور يوما من الأيام ، فقلنا : يا رسول اللّه لقد رأينا في وجهك تباشير السرور ! .

فقال :

« وكيفَ لا أُسَرُّ وقد أتاني جبريلُ علَيه السلام فبشَّرني أنَّ حسنًا وحُسينًا

---

(١) أحمد (٥ / ٣٢٩) ، (٦ / ٢١) .

(٢) الطبراني في الكبير (١ / ٣١٧) .

سيِّدا شبابِ أهلِ الجنةِ ، وأبوهما أفضلُ مِنهما »[١] .

احترام وإكرام

عن عبد اللَّه بن عمر رضي اللَّه تعالى عنهما قال : كنا مع النبي ﷺ في سفر فكنت على بكر صعب لعمر ، فكان يغلبني فيتقدم أمام القوم ، فيزجره عمر ويرده ، ثم يتقدم فيزجره عمر ويرده ، فقال النبي ﷺ لعمر :

« بِعْنيه » .

قال : هو لك يا رسول اللَّه .

قال :

« بِعنيه » .

فباعه من رسول اللَّه ﷺ ، فقال النبي ﷺ :

« هُوَ لَكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ بنَ عمرَ تصنَعُ به ما شِئت »[٢] .

حرص الصحابة على سرور النبي ﷺ

كان سرور النبي ﷺ عند الصحابة بمكان حتى إن الصحابي لما طرق الباب على آخرَ فقال أجاء غسان (جيش لعدوهم) قال : بل أعظم من ذلك طلق النبي نسائه . وبعدها جلس النبي في مشربة له مكروبا فحرص عمر على إدخال السرور عليه ، ومن هذه المواقف ما ورد عن سعد بن أبي وقاص رضي اللَّه عنه قال : استأذن عمر على رسول اللَّه ﷺ وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه ، عالية أصواتهن ، فلما استأذن عمر قمن يبتدرن الحجاب

(١) الطبراني في الكبير (٣ / ٣٧) ، تاريخ بغداد (١٠ / ٢٣٠) .

(٢) البخاري (٢١١٥) .

فأذن له رسول اللَّه ﷺ ، ورسول اللَّه يضحك ، فقال عمر : أضحك اللَّه سنك يا رسول اللَّه .

قال :

« عجِبتُ من هؤلاءِ اللاتي كنَّ عِندي ، فلمّا سمِعنَ صوتَك ابتدرنَ الحجابَ » .

قال عمر : فأنت يا رسول اللَّه كنت أحق أن يهبن . . ثم قال : أي عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول اللَّه ؟ قلن : نعم ، أنت أفظ وأغلظ من رسول اللَّه ﷺ .

فقال رسول اللَّه ﷺ :

« والذي نفسي بيده ما لِقيَك الشَّيطانُ قطُّ سالكًا فجًّا إلا سلَك فجًّا غيرَ فجِّك »[1] .

فضل مَكَّةَ على سائر البُلدان

عن ابن عمر رضي اللَّه تعالى عنهما قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« قد علمتُ أن أحبَّ البلادِ إلى اللَّهِ - عز وجل - مكَّةَ ، ولولا أنَّ قومي أخرَجوني ما خَرجت ، اللّهمّ اجعَلْ في قلوبِنا من حبِّ المدينةِ مثلَ ما جَعلْت في قلوبِنا من حُبِّ مكَّةَ » .

وما أشرف رسول اللَّه ﷺ على المدينة قط إلا عُرف في وجهه البِشر والفرح[2] .

---

(١) البخاري (٣٢٩٤) ، ومسلم (٢٣٩٦) .

(٢) الطبراني في الكبير (١٢ / ٣٦١) .

أداء الفرائض واجتناب الرذائل سبب لدخول الجنة بسلام

عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري : خطبنا رسول اللَّه ﷺ يوما فقال : « والذين نفسي بيدِه » ثلاث مرات .

ثم أكب ، فأكب كل رجل منا يبكي لا ندري على ماذا حلف ، ثم رفع رأسه في وجهه البشر ، وكانت أحب إلينا من حمر النعم ، ثم قال :

« ما مِن عبدٍ يصلي الصلواتِ الخمسِ ، ويصومُ رمضانَ ، ويخرِجُ الزَّكاةِ ويجتَنِبُ الكبائرَ السَّبعَ ، إلا فُتحَ له أبوابُ الجنةِ ، ثم قيل له : ادخُلْ بسلامٍ »[1] .

لماذا تفر من الدِّين والتَّدَيُّنِ ؟ !

إن القرب من الدين مصدر قوة وعزة وراحة قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء : ٦٦] وقال تعالى : ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء : ١٤٧] وقال تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل : ٩٧] وما تقرب العبد من ربه إلا زاد الرب سبحانه وتعالى قربا من عبده فلما الفرار من اللَّه بل المنبغى على العبد الفرار إلى اللَّه : ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الذاريات : ٥٠] وهذا مثالٌ لمن حاول الفرار ، ولكن اللَّه قدر هدايته .

---

(١) تهذيب الكمال للمزِّي (١٣ / ٢٤٥) ، وعزاه لأبي نعيم .

عن عدي بن حاتم قال : جاءت خيل رسول اللّه ﷺ فأخدوا عمتي وناسا ، فلما أتوا بهم إلى رسول اللّه ﷺ صفوا له ، فقالت : يا رسول اللّه ناء الوافد ، وانقطع الولد ، وأنا عجوز كبيرة ما بي من خدمة ، فمن علي من اللّه عليك .

قال :

« مَن وافِدُك ؟ »

قالت : عدي بن حاتم .

قال :

« الذي فرَّ مِن اللَّهِ ورسولِهِ ؟ ! » .

قالت : فمُنّ علي . فلما رجع ورجل إلى جنبه - ترى أنه علي - قال : سليه حملان ، فسألته ، فأمر لها .

قال عدي : فأتتني فقالت : لقد فعلت فعلة ما كان أبوك يفعلها ، فإنه أتاه فلان فأصاب منه ، وأتاه فلان فأصاب منه ، فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان - أو صبي - وذكر قربهم من النبي ﷺ ، قال : فعرفعت أنه ليس بملك كسرى ولا قيصر . فقال :

« يا عديُّ ما أفرَّك ؟ ؛ أن يقال : لا إلهَ إلا اللَّهُ ، فهل مِن إلهٍ إلا اللَّهُ ؟ ما أفرَّك ؟ أن يقال : اللَّهُ أكبرُ ، فهل شيءٌ أكبرُ مِن اللَّهِ - عز وجل - ؟ » .

قال : فأسلمت فرأيت وجهه استبشر ، وقال :

« إن المغضوب عليهم اليهود ، وإن الضالين النصارى » .

ثم سألوه ، فحمد اللّه تعالى ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعدُ ؛ فلكم أيها الناس أن ترضَخوا مِن الفضلِ ، ارتضَخَ امرؤٌ

بصاعٍ ، ببعض صاعٍ ، بقبضةٍ ، ببعضِ قبضةٍ » .

قال شعبة : وأكثر علمي أنه قال :

« بتمرةٍ ، بشقِّ تمرةٍ » وإن أحدكم لاقي اللَّه - عز وجل - فقائلٌ ما أقولُ : ألم أجْعَلْك سميعًا بصيرا ؟ ألم أجعلُ لك مالًا وولدًا ؟ فماذا قدَّمت ؟ فينظُرُ مِن بينِ يدَيه ومِن خلفِه ، وعن يمينِه وعن شمالِه ، فلا يجدُ شيئًا ، فما يتقي النارَ إلا بوجهِه ، فاتقوا النار ولو بشقِّ تمرةٍ ، فإن لم تجدوها فبكلمةٍ ليِّنةٍ ، إني لا أخشى عليكم الفاقةَ ، وليصرنْكم اللَّه تعالى وليعطينَّكم ، أو ليفتحنَّ لكم ، حتى تسيرَ الظعينةُ بينَ الحِيرةُ ويثربَ أو أكثرَ ما تخافُ السرقَ على ظعينتِها[١] .

فرحتان !

عن جابر بن عبد اللَّه رضي اللَّه عنه قال : لما قدم جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة قال رسول اللَّه ﷺ :

« ما أدري بأيِّهما أنا أَفرحُ ؛ بفتحِ خيبرَ أم بقدومِ جعفرٍ ؟ ! »[٢] .

فرحة وإسلام ملك من ملك النصارى

عن عبد اللَّه بن جعفر بن أبي طالب عن أبيه قال : بعثت قريش عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدية من أبي سفيان إلى النجاشي ، فقالوا له ونحن عنده : قد بعثوا إليك أناسا من سفلتهم وسفهائهم ، فادفعهم إلينا .

قال : لا حتى أسمع كلامهم ، فبعث إلينا فقال : ما تقولون؟ قلنا : إن

(١) أحمد (٣ / ٤٨٧) ، وابن حبان (٧٢٠٦) ، والطبراني في الكبير (١٧ / ٩٩) .

(٢) الحاكم في المستدرك (٢ / ٦٢٤) ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

قومنا يعبدون الأوثان ، وإن اللَّه - عز وجل - بعث إلينا رسولا فآمنا به وصدقناه .

فقال لهم النجاشي : عبيد هم لكم ؟

قالوا : لا

قال : فلكم عليهم دين ؟

قالوا : لا .

قال : فخلوا سبيلهم . فخرجنا من عنده ، فقال عمرو بن العاص : إن هؤلاء يقولون في عيسى غير ما تقولون .

قال النجاشي : إن لم يقولوا في عيسى مثل ما أقول لم أدعهم في أرضي ساعة من نهار .

قال : فأرسل إلينا ، وكانت الدعوة الثانية أشد علينا من الأولى ، فقال : ما يقول صاحبكم في عيسي بن مريم ؟

فقلنا : يقول : هو روح اللَّه وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول . . فأرسل فقال : أدعوا فلانا القس ، وفلانا الراهب . فأتاه ناس منهم ، فقال : ما تقولون في عيسى بن مريم ؟ فقالوا : أنت أعلمنا فما تقول ؟ فقال النجاشي وأخذ شيئا من الأرض ثم قال : هكذا عيسى ما زاد على ما قال هؤلاء مثل هذا .

ثم قال لهم : أيؤذيكم أحد ؟

قالوا : نعم . فأمر مناديا فنادى : من آذى أحدا منهم فأغرموه أربعة دراهم . ثم قال : يكفيكم ؟ فقلنا : لا ، فأضعفها .

فلما هاجر رسول اللَّه ﷺ إلى المدينة وظهر بها ، قلنا له : إن صاحبنا قد خرج إلى المدينة وهاجر ، وقتل الذين كنا حدثناك عنهم ، وقد أردنا الرحيل فزوِّدنا .

قال : نعم . فحمَّلنا وزوَّدنا وأعطانا ، ثم قال : خبر صاحبك بما صنعت إليكم ، هذا رسولي معك ، وأنا أشهد أن لا إله إلا اللّه ، وأنه رسول اللّه ، وقل له يستغفر لي .

قال : فخرجنا حتى أتينا المدينة ، فتلقاني رسول اللّه ﷺ فاعتنقني فقال : « ما أدري أنا بفتحِ خيبر أفرح أو بقدوم جعفر ؟ » .

ثم جلس فقام رسول النجاشي فقال : هو ذا جعفر فسله ما صنع به صاحبنا ؟

فقلت : نعم ، قد فعل بنا ، قد فعل كذا وكذا ، وحملنا وحملنا ، وزودنا ونصرنا ، وشهد أن لا إله إلا اللّه وأنك رسوله ، وقال : قل له يستغفر لي .

فقام رسول اللّه ﷺ فتوضأ ، ثم دعا ثلاث مرات :

« اللّهمّ اغفر للنجاشي » .

فقال المسلمون : آمين .

قال جعفر : فقلت : انطلق فأخبر صاحبك ما رأيت من النبي ﷺ[١] .

فلا تنسى يا عبد اللّه نعمه علينا فيعود عليك الأمر بالوبال والأوزار والأحزان .

كلام حسن وجميل للقضاة بين الناس

عن ابن عباس قال : إن عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب وأمها سلمى بنت عميس كانت بمكة فلما قادم رسول اللّه ﷺ كلم عليٌ النبيَّ فقال : علام تركت بنت عمنا يتيمة بين ظهور المشركين ، فلم ينهه النبي ﷺ عن

---

(١) الطبراني في الكبير (٢ / ١١٠) ، وفي الأحاديث الطوال (١٤) .

إخراجها ، فخرج بها ، وتكلم زيد بن حارثة وكان وصي حمزة ، كان النبي ﷺ آخى بينهما حين آخى بين المهاجرين ، فقال : أنا أحق بها ابنة أخي ، فلما سمع ذلك جعفر قال : الخالة والدة ، وأنا أحق بها لمكان خالتها ، عندي أسماء بنت عميس . فقال علي : ألا أخبركم إنما هي ابنة عمي ، وأنا أخرجتها من بين أظهر المشركين ، وليس لكم إليها نسب دوني ، وأنا أحق بها منكم ، فقال رسول اللَّه ﷺ :

« أنا أحكُم بينَكم ، أما أنت يا زيدُ فمولى اللَّهِ ورسولِه ، وأما أنت يا علي فأخي وصاحبي ، وأما أنت يا جعفر فشبَهُ خَلْقي وخُلْقي ، وأنت يا جعفر أولى ، تحتَك خالتُها ، ولا تنكح المرأة على خالتِها ، ولا على عمَّتِها » .

فقضى بها لجعفر ، فقام جعفر فحجل[1] حول رسول اللَّه ﷺ ، فقال النبي ﷺ :

« ما هذا يا جعفر ؟ » .

فقال : يا رسول اللَّه كان النجاشي إذا رضي أحدًا قام فحجل حوله ، فقيل للنبي ﷺ : تزوجها فقال :

« ابنةُ أخي مِن الرضاعةِ » .

فزوجها رسول اللَّه ﷺ سلمة بن أبي سلمة .

وعن علي قال : أتيتُ النبيَّ ﷺ أنا وجعفر وزيد ، فقال لزيد :

« أنت أخونا ومولانا ! » .

فحجل زيد .

---

(١) ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٩/ ٣٦١) ، والطبقات (٨/ ١٥٩) ، وكنز العمال (١٤٠٣٣) ورجاله ثقات سوى الواقدي . . . وأخرجه ابن سعد مرسلا بسند صحيح إلى جعفر بن محمد عن أبيه (٤ / ٣٥ - ٣٦) ، نصب الراية (٣/ ٢٦٨) .

ثم قال لجعفر :

« أشبهتَ خَلْقي وخُلُقي ! »

فحجل وراء حجل زيد ، ثم قال لي :

« أنت مِني وأنا مِنك » .

فحجلت وراء حجل جعفر[١] .

نسب لا شبهة فيه

كان أسامة بن زيد رضي اللَّه عنه شديد السواد ، وكان أبوه زيد شديد البياض مثل القطن ، فكانت العرب ربما قدحت في هذا النسب ، فلما شهر بينهما أمر القافة ، وهو معرفة النسب ببعض العلامات منها رؤية القدمين وغير ذلك ، فلما عرض أسامة وأبوه على قائف فشهد بالشبه سر النبي ﷺ والحديث رواه البخاري .

عن عائشة رضي اللَّه تعالى عنها أن رسول اللَّه ﷺ دخل عليها مسرورًا تبرق أسارير وجهه ، فقال :

« ألم تَسمعي ما قال مجزر المدلجي ؟ دخَلَ عَلَيَّ فرأى أسامة بن زيد وزيد ابن حارثة عليهما قطيفة وقد غطيا رؤوسهما ، وبدت أقدامهما ، فقال : إنَّ هذه الأقدامَ بعضُها مِن بعضٍ »[٢] .

---

(١) أحمد (١/ ١٠٨) ، والبيهقى (٥١٢٣) ، وفى تاريخ الإحياء (٢/ ٣٠٤) . قال العراقي : إسناده حسن ، وعزاه لأبي داود ، ولم يرد فيها الحجل ، ورواية البخاري لم يرد فيها الحجل ، وأبو داود (٢٢٧٨) ، والبخاري (٢٦٩٩ / ٤٥٢١) .

(٢) البخاري (٣٥٥٥) ، ومسلم (١٤٥٩) .

نريد رجالا مثل هؤلاء

عن طارق بن شهاب قال : قال عبد اللّه بن مسعود : لقد شهدت من المقداد بن الأسود مشهدا لأن أكون أنا صاحبه أحب إلي مما عدل به ، أتى رسول اللّه ﷺ وهو يدعو على المشركين ، فقال : واللّه يا رسول اللّه لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة : ٢٤] ولكن نقاتل عن يمينك وعن يسارك ، ومن بين يديك ومن خلفك .

قال : فرأيت وجه رسول اللّه ﷺ يشرق وسر بذلك .

قال أبو نعيم : فرأيتُ رسُولَ اللّهِ ﷺ أشرق وجهه وسره ذاك[١] .

كان ذلك قبل يوم بدر عندما استشار رسول اللّه ﷺ الناس ، وأخبرهم عن قريش ، فقام أبو بكر الصديق ، فقال وأحسن ، ثم ابن الخطاب فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول اللّه امض لما أراك اللّه ، فنحن معك ، واللّه لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إن معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق ولو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ، فقال له رسول اللّه ﷺ خيرا ، ودعا له به ، ثم استشار رسول اللّه ﷺ الأنصار فقال :

« أشيروا علي أيها الناس » .

إنما يريد الأنصار وذلك أنهم عدد الناس ، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول اللّه إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا ، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا ، فكان رسول اللّه

---

(١) أحمد (١ / ٣٨٩ ، ٤٢٨ ، ٤٥٧) .

ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم ، فلما قال ذلك رسول اللَّه قال له سعد بن معاذ : واللَّه لكأنك تريدنا يا رسول اللَّه ؟

قال :

« أجل » .

قال : فقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول اللَّه لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما يخفى منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا ، إنا لصُبر في الحرب ، صدق في اللقاء ، لعل اللَّه يريك منا ما تقر به عينك ، فسِر بنا على بركة اللَّه ، فسُرَّ رسول اللَّه ﷺ بقول سعد ، ونشطه ذلك ، ثم قال :

« سيروا وأبشِروا ، فإن اللَّهَ تبارك وتعالى قد وعدَني إحدى الطائفتينِ ، واللَّه لكأني الآنَ أنظُر إلى مصارعِ القومِ »[1] .

قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ

عن عبد اللَّه بن عكرمة قال : لما كان يوم الفتح دخل الحارث بن هشام ، وعبد اللَّه بن أبي ربيعة على أم هانئ بنت أبي طالب رضي اللَّه تعالى عنها ، فاستجارا بها ، فقالا : نحن في جوارك ، فأجارتهما ، فدخل عليهما علي بن أبي طالب رضي اللَّه تعالى عنه ، فنظر إليهما ، فشهر عليهما السيف ، **فتفلت**

---

(١) سيرة ابن هشام (٣ / ١٦١ - ١٦٢) ، والسيرة لابن حبان (١ / ١٥٧) ، مختصر زاد المعاد (١ / ٢٦٩) .

عليهما ، فاعتنقته وقالت : تصنع بي هذا من بين الناس ؟ لتبدأن بي قبلهما ؟

فقال : تجيرين المشركين ؟ فخرج .

قالت أم هانئ : فأتيت رسول اللّه فقلت : يا رسول اللّه ما لقيت من ابن أمي علي ما كدت أفلت منه أجرت حموين لي من المشركين فانفلت عليهما ليقتلهما .

فقال رسول اللّه ﷺ :

« ما كان ذلك له ، قد أجَرنا من أجرتِ ، وآمنا مَن أمَّنت » .

فرجعت إليهما فأخبرتهما ، فانصرفا إلى منازلهما .

فقيل لرسول اللّه ﷺ : الحارث بن هشام ، وعبد اللّه بن أبي ربيعة جالسان في ناديهما متنضلين في الملأ المزعفرة .

فقال رسول اللّه ﷺ :

« لا سبيلَ إليهما قد أمَّنَّاهما » .

قال الحارث بن هشام : وجعلت أستحيي أن يراني رسول اللّه ﷺ ، وأذكر رؤيته إياى في كل موطن من المشركين ، ثم أذكر بره ورحمته ، فألقاه وهو داخل المسجد فتلقاني بالبشر ، ووقف حتى جئته ، فسلمت عليه ، وشهدت شهادة الحق ، فقال :

« الحمدُ اللّه الذي هداك ، ما كان مثلُك يجهلُ الإسلامَ » .

قال ابن عمر : وحدثني الضحاك بن عثمان أخبرني عبد اللّه بن عبيد بن عمير سمعت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام يحدث عن أبيه قال : رأيت رسول اللّه ﷺ في حجته ، وهو واقف على راحلته وهو يقول :

« واللّهِ إنّك لخيرُ الأرضِ وأحبُّ الأرض إلى اللّهِ ، ولولا أني أُخرجت

مِنك ما خرَجت » .

فقلت : يا ليتنا نفعل ، فارجع إليها ، فإنها منبتك ومولدك .

فقال رسول اللَّه ﷺ :

« إني سألتُ ربي - عز وجل - قلت : اللَّهمَّ إنك أخرجتَني من أحبِّ أرضِك إليَّ ، فأنزلني أحبَّ الأرضِ إليك ، فأنزلَني المدينةَ » .

قال ابن عمر : ولم يزل الحارث مقيما بمكة بعد أن أسلم ، حتى توفي رسول اللَّه ﷺ فلما جاء كتاب أبي بكر الصديق رضي اللَّه تعالى عنه يستنفر المسلمين إلى غزو الروم قدم ابن هشام وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل ابن أبي عمرو على أبي بكر المدينة فأتاهم في منازلهم فرحب بهم وسلم عليهم وسر بمكانهم ، ثم خرجوا مع المسلمين غزاة إلى الشام ، فشهد الحارث بن هشام فحل وأجنادين ، ومات بالشام في طاعون عمواس سنة ثمان عشرة[1] .

فرحة بتيسير من عند اللَّه

عن البراء رضي اللَّه تعالى عنه قال : كان أصحاب محمد ﷺ إذا كان الرجل صائما فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لا يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي ، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائما ، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال لها : أعندك طعام ؟ قالت : لا . ولكن أنطلق فأطلب لك ، وكان يومَه يعمل ، فغلبته عيناه ، فجاءته امرأته ، فلما رأته قالت : خيبة لك ، فلما انتصف النهار غشي عليه ، فذكر ذلك للنبي ﷺ ، فأنزلت هذه الآية : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة :١٨٧] ففرحوا بها فرحا

(١) الحاكم في المستدرك (٣ / ٢٧٧) ، وابن سعد (٧ / ٤٠٤) .

شديدا ونزلت : ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة : ١٨٧](١) .

لا مانع من تقدير اللّه

عن أسماء بنت أبي بكر رضي اللّه تعالى عنهما أنها حملت بعبد اللّه بن الزبير بمكة ، قالت : فخرجت وأنا متم ، فأتيت المدينة فنزلت قباء ، فولدت بقباء ، ثم أتيت به رسول اللّه ﷺ فوضعته في حجره ، ثم دعا بتمرة فمضغها ، ثم تفل في فيه ، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول اللّه ﷺ ، ثم حنكه بالتمرة ثم دعا له وبرَّك عليه ، وكان أول مولود ولد في الإسلام ، ففرحوا به فرحا شديدا ، لأنهم قيل لهم : إن اليهود قد سحرتكم فلا يولد لكم(٢) .

المرء مع من أحب

عن أنس أن رجلا من أهل البادية أتى النبي ﷺ ، فقال : متى الساعة ؟

قال :

« ويلَك وما أعدَدتَ للساعةِ ؟ » .

قال : ما أعدَدتُ لها شيئا إلا أني أحب اللّه ورسوله .

فقال النبي ﷺ :

« فإنك مع من أحبَبْتَ » .

---

(١) البخاري (١٩١٥) ، والترمذي (٢٩٦٨) .

(٢) البخاري (٥٤٦٩) ،ومسلم (٢١٤٦) .

فقال أصحابه : نحن كذلك ؟

قال :

« نعم وأنتُم كذلك » .

قال : ففرحوا يومئذ فرحًا شديدًا .

وفي رواية أخرى عن أنس : فلم أر المسلمين فرحوا فرحًا أشد منه[١] .

وفي رواية عن أنس قال : أتى رجل إلى النبي ﷺ فقال : الرجل يحب القوم على العمل من الخير يعملون ولمّا يعمل بمثله ؟ !

فقال النبي ﷺ :

« المرُء مع من أحبَّ - أو مع مِن يُحبُّ - » .

قال : ففرح بذلك أصحاب النبي ﷺ فرحا لم أرهم فرحوا بشيء مثل فرحهم به[٢] .

كم بعث النار ؟

عن ابن عباس رضي اللَّه تعالى عنهما قال : تلا رسول اللَّه ﷺ هذه الآية وعنده أصحابه : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ [الحج : ١] .

إلى آخر الآية ، فقال :

« هل تدرون أي يوم ذاك ؟ » .

قالوا : اللَّه ورسوله أعلم .

---

(١) البخاري (٣٦٨٨) ،ومسلم (٢٦٣٩) .

(٢) أبو يعلى (٣٢٨٠) بسند صحيح .

قال :

« ذاك يومٌ يقول اللَّهُ لآدمَ : قم فابعَثْ بعثَ النارِ - أو قال : بعثًا إلى النارِ - فيقول : يا ربِّ مِن كم ؟ قال : من كل ألفٍ تسعمائةٌ وتسعةٌ وتسعينَ إلى النارِ ، وواحدٌ إلى الجنَّةِ » .

فشق ذلك على القوم ، ووقعت عليهم الكآبة والحزن ، فقال رسول اللَّه ﷺ :

« إني لأرجو أن تكونوا شطرَ أهلِ الجنَّةِ » .

ففرحوا . .

فقال النبي ﷺ :

« اعملوا وأبشِروا ، فإنَّكم بين خليقتَينِ لم يكونا مع أحدٍ إلا كثَّرتاه : يأجوجُ ومأجوجُ ، وإنّما أنتم في النّاسِ - أو في الأمم - كالشامةِ في جنبِ البعيرِ ، أو كالرقمةِ في ذراعِ الناقةِ ، وإنّما أمَّتي جزءٌ مِن ألفِ جزءٍ »[1] .

ونحوه حديث عمران بن حصين أن رسول اللَّه ﷺ قال وهو في سفر إذ رفع صوته بالآيتين : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟﴾ إلى قوله : ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ . قال : فحثوا المطي وعرفوا أنه عند قول يقول ، فلما تأشبوا حوله قال :

« أتدرونَ أيُّ يومٍ ذاك ؟ » .

قالوا : اللَّه ورسول أعلم .

قال :

« ذاك يومٌ يقولُ اللَّهُ - عز وجل - لآدمَ : يا آدمُ قم فابَعث بعثَ النارِ ،

---

(١) الحاكم (٤ / ٥٦٨) وقال : حديث صحيح بهذه الزيادة ، ولم يخرجاه . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١١١٨١ ، ١٨٦٢٣) : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير هلال ابن خباب وهو ثقة .

قال : يا ربِّ وما بعثُ النارِ ؟ قال : مِن كلِّ ألفٍ : تسعمائةٍ وتسعةٌ وتسعونَ إلى النارِ ، وواحدٌ إلى الجنةِ » .

فأبلسوا حتى ما أوضحوا بضاحكة ، فلما رأى ذلك رسول اللّه ﷺ قال :

« اعملوا وأبشِروا ، فوالذي نفسي بيدِه إنّكم لمع خليقتينِ ما كانتا في شيءٍ قطُّ إلا كثرتاه ، مع يأجوجَ ومأجوجَ ، ومن هلك من ولدِ آدمَ وولدِ إبليسَ » .

قال : فأسرى عنهم . . ثم قال :

« اعملوا وأبشِروا فوالذي نفسي بيدِه ما أنتم في الناسِ إلا كالشامةِ في جنبِ البعيرِ أو كالرَّقمةِ في ذراعِ الدابَّة »[1] .

ونحوه حديث أبي سعيد الخدري قال : قال رسول اللّه ﷺ :

« يقول اللّه - عز وجل - : يا آدم ، فيقولُ : لبيكَ وسعدَيكَ والخيرُ في يديك ، فيقول : أخرِجْ بعثَ النارِ ، قال : وما بعثُ النارِ ؟ قال : مِن كلِّ ألف تسعمائةٍ وتسعةٌ وتسعين » . قال : « فذاك حينَ يشيبُ الصغيرُ : ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ » [الحج : ٢] .

قال : فاشتد ذلك عليهم ، قالوا : يا رسول اللّه أينا ذلك الرجل ؟

فقال :

« أبشروا فإنَّ مِن يأجوجَ ومأجوجَ ألفًا ، ومِنكم رجلٌ » .

ثم قال :

« والذي نفسي بيدِه إني لأطمَعُ أن تكونوا رُبْع أهلِ الجنَّةِ » .

---

(١) أحمد (٤ / ٤٣٢ ، ٤٣٥) ، والترمذي (٣١٦٨ - ٣١٦٩) ، والنسائي في الكبرى (١١٣٤٠) ، والطيالسي (٨٣٥) .

فحمدنا اللَّه وكبرنا . . ثم قال :

« والذي نفسي بيدِه إني لأطمَعُ أن تكونوا ثُلثَ أهلِ الجنةِ » .

فحمدنا اللَّه وكبرنا . . ثم قال :

« والذي نفسي بيده إنِّي لأطمَعُ أن تكونوا شطرَ أهلِ الجنَّةِ ، إن مثلَكم في الأممِ كمَثَلِ الشَّعرةِ البيضاءِ في جلدِ الثورِ الأسودِ ، أو كالرَّقمةِ في ذراعِ الحمارِ »(١) .

فما الذي كسبه هؤلاء وهم وقود النار ، ولطالما فعلوا المعاصي والبلايا وما رجعوا ، فبادِر يا عبد اللَّه قبل أن تُبادَر وأدرِك نفسَك قبل فوات الأوان .

احفظ الأوقات في طاعة يحفظك اللَّه

إن شغل الأوقات بطاعة اللَّه يعود على العبد برفعة في منزلته ومكانته عند ربه سبحانه وتعالى ، وملأ فلان وقته الفارغ بالقيام بين يدي ربه ليعيد عليه الأمر بالسرور والفرح والحبور ، فأَكْثِر من اللجوء لربك ، ولا تشغل بالك بغيره فهو الكافي لك في كل ما تريد .

مِن يتَّق اللَّهَ يُحمَدْ في عواقبِهِ ... ويكفِه شرَّ مَن عزُّوا ومن هانوا
من استجارَ بغيرِ اللَّهِ في فزعٍ ... فـإنِّـي نـاصـر عـجـزُ وخـذلانُ
فالزم يدَيك بحبلِ اللَّهِ معتصمًا ... فإنَّه الركنُ إن خانتّك أركانُ

وانظر لهذا المثال :

عن أبي موسى قال : كنت أنا وأصحابي الذين قدموا معي في السفينة نزولا في بقيع بطحان والنبي ﷺ بالمدينة ، فكان يتناوب النبي ﷺ عند صلاة

(١) البخاري (٣٣٤٨) ، ومسلم (٢٢٢) .

العشاء كل ليلة نفر منهم ، فوافقنا النبي ﷺ أنا وأصحابي وله بعض الشغل في بعض أمره ، فأعتم بالصلاة حتى أبهار[١] الليل ، ثم خرج النبي ﷺ فصلى بهم ، فلما قضى صلاته قال لمن حضره :

« على رِسلِكم ، أبشروا إنَّ من نعمةِ اللّهِ عَليكم أنَّه ليس أحدٌ مِن الناسِ يصلي هذه الساعةَ غيرُكم - أو قال : ما صلَّى هذه الساعةَ أحدٌ غيرُكم » - لا يدري أي الكلمتين قال - قال أبو موسى : فرجعنا ففرحنا بما سمعنا من رسول اللّه ﷺ .

وفي رواية : فرجعنا فرحين بما سمعنا من رسول اللّه ﷺ[٢] .

﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾

عن عبد الرحمن بن أبزي عن أبي بن كعب قال : قال لي رسول اللّه ﷺ :

« يا أُبي أمِرتُ أن أقرأ عليكَ سورةَ كذا وكذا » .

قلت : يا رسول اللّه وقد ذكرت هناك ؟

قال :

« نعم » .

فقلت له : يا أبا المنذر ففرحت بذلك ؟ !

قال : وما يمنعني واللّه تبارك وتعالى يقول : ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس : ٥٨][٣] .

يروي أنس قال : قال رسول اللّه ﷺ لأبي بن كعب :

(١) البخاري (٥٦٧) ، ومسلم (٦٤١) .
(٢) أحمد (٥ / ١٢٣) .

« إنَّ اللَّهَ أمَرني أن أقرأ عليك : ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البينة : ١] .

قال : وسماني لك ؟

قال :

« نعم » .

قال : فبكى[١] .

قال المازري والقاضي : الحكمة في ذلك أن يتعلم أبّي ألفاظه وصيغ أدائه ومواضع الوقوف وصيغ النغم ، فإن نغمات القرآن على أسلوب ألفه الشرع وقدره من النغم المستعملة في غيرها ، ولكل ضرب من النغم أثر مخصوص في النفوس ، فكانت القراءة عليه لتعليمه لا ليتعلم منه ، وقيل : لينبه الناس فضيلة أبي بن كعب في ذلك ويحثهم على الأخذ عنه ، ولا يمتنع أحد من الأخذ عمن هو دونه في الرتبة .

ولما نزلت سورة البينة ، وكانت عادته ﷺ إذا نزل عليه شيء قرأه على أصحابه أو من حضر منهم أمر عند نزول هذه السورة أن يقرأها على أبي بن كعب ، فنص له على اسمه بخصوصه ، وهذا وجه الفضيلة في كونه نص على اسمه ، ولهذا قال أبي : آللَّه سماني لك . فعد وجه النعمة عليه كونه سماه له ، فكانت قراءته ﷺ عليه من نمط قراءته لما نزل على سائر الصحابة من غير زيادة على ذلك ، ولم تكن المزية والخصوصية إلا في التنصيص على اسمه بخصوصه ، ومع هذا فلا يحتاج إلى تأويل ، فبكى قيل : سرورا ، وقيل : خوفًا من تقصيره في شكر هذه النعمة[٢] .

---

(١) البخاري (٣٨٠٩) ، ومسلم (٧٩٩) .

(٢) الديباج (٢ / ٣٩٨) .

التوكل من صفات أهل الجنة الذين يدخلون بغير حساب

قال الرازي - رحمه اللّه - : وهو سبحانه وكيل المؤمنين الذين جعلوا اعتقادهم في حوله وقوته وخرجوا من حولهم وطولهم ، وآمنوا بكمال قدرته وأيقنوا أنه لا حول ولا قوة إلا باللّه ، فركنوا إليه في جميع أمورهم وجعلوا اعتمادهم عليه في سائر حياتهم ، وفوضوا إليه الأمر قبل سعيهم واستعانوا به حال كسبهم وحمدوه بالشكر بعد توفيقهم والرضا بالمقسوم بعد ابتلائهم(١) .

وقال ابن القيم : فوكالة الرب عبده أمر وتعبد وإحسان له وخلعة منه عليه ، لا عن حاجة منه وافتقار إليه ، وأما توكيل العبد ربه فتسليم لربوبيته وقيام بعبوديته(٢) .

قال ابن الجوزي : والوكيل سبحانه هو الذي توكل بالعالمين خلقا وتدبيرا وهداية وتقديرا ، فهو المتوكل بخلقه إيجادا وإمدادا قال تعالى : ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنعام : ١٠٢](٣) .

وقال الإمام أحمد في قوله تعالى : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان : ٥٨] لا ينبغي لعبد أن يتوكل على غير اللّه بعد هذه الآية .

وانظر لمنزلتهم في هذا الحديث :

عن عمران بن حصين قال : قال النبي ﷺ :

« عُرِض عليَّ الليلة الأنبياءَ ، فكان الرجلُ يجيءُ معَهَ الرجلُ ، ويجيء معه الرجلانِ ، ويجيءُ معه النَّفرُ كذلك ، حتى رأيتُ سوادًا كثيرًا ، فظننتُ أنَّهم

(١) شرح أسماء الله الحسنى للرازي ص (٢٨٢) ، والمقصد الأسني ص (١١٤) .
(٢) مدارج السالكين بتصرف (٢ / ١٢٧) .
(٣) زاد المسير لابن الجوزي (١ / ٥٠٥) .

أمَّتي ، فقلت : مَن هؤلاء ؟ فقيل : هؤلاء قومُ موسى ، ثم رأيت سوادًا كثيرا قد سدّض أفق السماءِ ، فقلت : مَن هؤلاء ؟ فقيل : هؤلاء مِن أمَّتِك ، ففرحت بذلك وسررت به ، ثم قيل : إنه يدخُلُ بعد هؤلاء مِن أمَّتك الجنةَ سبعونَ ألفا لا حسابَ عليهم ولا عذابَ » .

ثم قام النبي ﷺ ، فقال القوم : من هؤلاء ، فتراجعوا ، ثم أجمع رأيهم أنهم من ولد في الإسلام وثبت فيه ، ولم يدرك شيئا من الشرك ، فخرج النبي ﷺ فسألوه عنهم ، فقال :

« الذين لا يكتَوون ولا يستَرقون ولا يتطيَّرون وعلى ربِّهم يتوكَّلون » .

زاد في رواية : فقام عكاشة فقال : ادع اللَّه أن يجعلني منهم ، فقال :

« اللَّهمَّ اجعلَه مِنهم » .

فقام رجل آخر فقال : يا رسول اللَّه ادع اللَّه أن يجعلني منهم ، فقال : « سبقك بها عكاشة »[١] .

وجبت له الجنة

عن أبي علي الجنبي أنه سمع أبا سعيد الخدري يقول : قال رسول اللَّه ﷺ :

« من قالَ : رضيتُ باللَّهِ ربًا وبالإسلامِ دينا ، وبمحمدٍ ﷺ رسولًا وجبَت له الجنةُ » .

قال : ففرحت بذلك وسررت به .

وفي رواية الحاكم : قال أبو سعيد : فحمدت اللَّه وكبرت وسررت به[٢] .

(١) لفظ ابن حبان (٦٠٨٩) ، والطبراني (١٨ / ٢٤١) ، وهو في الصحيح أصلا .

(٢) أبو داود (١٥٢٩) ، وهذا الفظ للنسائي في الكبرى (٩٨٣٣) ، والحاكم (٢ / ٩٣) .

ابدلني اللّه خيرًا !

عن أم سلمة قالت : أتاني أبو سلمة يوما من عند رسول اللّه ﷺ فقال : لقد سمعت من رسول اللّه ﷺ قولا فسررت به ، قال :

« لا تصيبُ أحدًا مِن المسلمينَ مصيبةٌ ، فيسترجِعُ عند مصيبتِهِ ، ثم يقول : اللّهمّ آجرِني في مصيبَتي واخلُف لي خيرا منها ، إلا فعل ذلك به » .

قالت أم سلمة : فحفظت ذلك منه ، فلما توفي أبو سلمة استرجعت ، وقلت : اللّهم آجرني في مصيبتي واخلفني خيرا منه ، ثم رجعت إلى نفسي ، قلت : من أين لي خير من أبي سلمة ؟ فلما انقضت عدتي استأذن علي رسول اللّه ﷺ ، وأنا أدبغ إهابا لي فغسلت يدي من القرظ ، وأذنت له ، فوضعت له وسادة أدم حشوها ليف ، فقعد عليها ، فخطبني إلى نفسي ، فلما فرغ من مقالته قلت : يا رسول اللّه ما بي أن لا تكون بك الرغبة في ، ولكني امرأة في غيرة شديدة ، فأخاف أن ترى مني شيئا يعذبني اللّه به ، وأنا امرأة قد دخلت في السن ، وأنا ذات عيال .

فقال :

« أما ما ذكرتِ من الغَيْرَةِ ، فسوف يُذهبها اللّهُ - عز وجل - مِنك ، وأمّا ما ذكرتِ من السنِّ ، فقد أصابني مثلُ الذي أصابَك ، وأما ما ذكرتِ من العيالِ ، فإنّما عيالُك عِيالي » .

قالت : فقد سلمت لرسول اللّه ﷺ ، فتزوجها رسول اللّه ﷺ ، فقالت أم سلمة : فقد أبدلني اللّه بأبي سلمة خيرا منه رسول اللّه ﷺ[١] .

---

(١) لفظ أحمد (٤ / ٢٧) .

إنك لأول أهلي لحوقا بي !

عن عائشة بنت طلحة عن عائشة أمِّ المؤمنين رضي اللَّه عنها قالت : ما رأيت أحدًا من الناس أشبه كلاما برسول اللَّه ﷺ ولا حديثا ولا جلسة من فاطمة . قالت : كان رسول اللَّه ﷺ إذا رآها قد أقبلت رحب بها ، ثم قام إليها فقبلها ، ثم أخذ بيدها فجاء بها حتى يجلسها في مكانه ، وكانت إذا رأت النبي ﷺ رحبت به ، ثم قامت إليه فقبلته ، وإنها دخلت على النبي ﷺ في مرضه الذي قبض فيه ، فرحب بها وقبلها ، ثم أسر إليها فبكت ، ثم أسر إليها فضحكت ، فقلت للنساء : ما كنت أرى إلا أنها لها فضلا على النساء ، فإذا هي من النساء ، بينما هي تبكي إذ ضحكت ، فسألتها : ما قال لك رسول اللَّه ﷺ؟ قالت : إني إذا لَبَذِرَةٌ[1] ، فلما أن قبض رسول اللَّه ﷺ سألتها ، فقالت : إن رسول اللَّه ﷺ قال :

« إنَّ أجلي قد حضَر ، وإنِّي ميِّتٌ » .

فبكيت ، ثم قال :

« إنَّكِ لأوَّلُ أهلي بي لحوقًا » .

فسررت وأعجبني فضحكت[2] .

شر قتلى وعلى رأسهم رجل أحد ثدييه كثدي المرأة !

عن أبي كثير مولى الأنصار قال : كنت مع سيدي مع علي بن أبي طالب

(١) البذر : هو الذي يُفشي السر ويُظهر ما يسمعه .

(٢) لفظ النسائي في الكبرى (٩٢٣٦) ، والبخاري في الأدب المفرد (٩٤٧) ، وأبو داود (٥٢١٧) والترمذي (٣٨٧٢) .

رضي اللّه عنه حيث قتل أهل النهروان ، فكأن الناس وجدوا في أنفسهم من قتلهم ، فقال علي رضي اللّه عنه ، يا أيها الناس إن رسول اللّه ﷺ قد حدثنا بأقوام يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، ثم لا يرجعون فيه أبدا ، حتى يرجع السهم على فوقه ، وإن آية ذلك أن فيهم رجلا أسود مخدج اليد ، أحد ثدييه كثدي المرأة ، لها حلمة كحلمة ثدي المرأة ، حوله سبع هلبات فالتمسوه ، فإني أراه فيهم . فالتمسوه فوجدوه إلى شفير النهر تحت القتلى ، فأخرجوه ، فكبر علي رضي اللّه عنه فقال : اللّه أكبر صدق اللّه ورسوله ، وإنه لمتقلد قوسا له عربية فأخذها بيده فجعل يطعن بها في مخدجيه ويقول : صدق اللّه ورسوله وكبر الناس حين رأوه واستبشروا ، وذهب عنهم ما كانوا يجدون[١] .

وهؤلاء أخذوا ببعض الدين وتركوا بعضه فضلوا ، أخذوا بنصوص الوعيد وتركوا نصوص الوعد ، والدين كل متكامل لا يتجزأ على هذا الفهم السيء ، وقد كانوا يطيلون الصلاة جدا ، ويكثرون الصيام ويكفرون المسلمين وما نفعهم ذلك .

لا حرج في بيان الحق

عن عائشة رضي اللّه عنها قالت : كان رسول اللّه ﷺ يقبل إحدى نسائه وهو صائم ثم تضحك[٢] .

قال النووي : قال القاضي : قيل يحتمل ضحكها التعجب ممن خالف في هذا .

---

(١) أحمد (١ / ٨٨) ، وأبو يعلى (٤٧٨) ، والحميدي (٥٩) ، وتاريخ بغداد (١٤ / ٣٦٢) .

(٢) البخاري (١٩٢٨) ، ومسلم (١١٠٦) .

وقيل : التعجب من نفسها حيث جاءت بمثل هذا الحديث الذي يستحى من ذكره ، ولا سيما حديث المرأة به عن نفسها للرجال ، لكنها اضطرت إلى ذكره لتبليغ الحديث والعلم ، فتتعجب من ضرورة الحال المضطرة لها إلى ذلك .

وقيل : ضحكت سرورا بتذكر مكانها من النبي ﷺ وحالها معه وملاطفته لها[(١)] .

سرور وأحزان

عن عائشة رضي اللّه عنها قالت : كشف رسول اللّه ﷺ ستورا ، أو فتح بابا في مرضه الذي مات فيه ، فرأى الناس خلف أبي بكر يصلون ، فسر بذلك ، وقال :

« الحمدُ للّهِ أنَّه لم يمُت نبيٌ حتى يؤمَّه رجلٌ مِن أمَّته » .

ثم يقول :

« أيُّها الناسُ مَن أصيبَ بمصيبةٍ مِنكم من بعدي فليَتَعَزَّ عَن مصيبتهِ بي ، فإنَّه ليس أحدٌ يصابُ من أمتي بعدي بمثلِ مصيبتهِ بي » . . . ﷺ[(٢)] .

وصح عن أنس بن مالك الأنصاري ، وكان تبع النبي ﷺ وخدمه وصحبه أن أبا بكر كان يصلي لهم في وجع النبي ﷺ الذي توفي فيه ، حتى إذا كان يوم الإثنين وهم صفوف في الصلاة ، فكشف النبي ﷺ عن ستر الحجرة ينظر إلينا ، وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف ، ثم تبسم يضحك .

---

(١) تلخيص الحبير (٢ / ١٩٥) ، وشرح النووي (٧ / ٢١٦) .

(٢) أحمد (٢١٦) ، وفي مجمع الزوائد (٤٠٠٤ ، ١٤٢٧١) قال : رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه عبيد الله بن جعفر ، وهو ضعيف .

قال أنس : فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبي ﷺ .

وفي رواية ابن سعد : ثم تبسم رسول اللَّه ﷺ ضاحكا فبهشنا ونحن في الصلاة من الفرح .

فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف ، وظن أن النبي ﷺ خارج إلى الصلاة فأشار إلينا النبي ﷺ : أن أتموا صلاتكم ،وأرخى الستر فتوفي من يومه[١] .

وقال حسان يصف حياة النبي ﷺ .

ثوى في قريشٍ بضعَ عشرةَ حجةٍ — يذكر لو يلقى صديقًا مواتِيا

ويعرض في أهل المواسمِ نفسه — فلم يَر من يؤوي ولم يَر داعيا

فلما أتانا وأطمانت به النَّوى — فأصبَح مسرورًا بطيبة راضِيا

وأصبحَ لا يَخشى عداوَة ظالِم — قريبٌ ولا يخشى من النّاسِ باغيا

بذلنا له الأموالَ مِن جُلِّ مالنا — وأنفسنا عَند الوغى والتآسِيا

نحاربُ من عادى مِن الناسِ كلِّهم — جميعًا وإن كان الحبيبُ المصافِيا

ونعلمُ أنَّ اللَّهَ لا ربَّ غيَره — وأنَّ كتابَ اللَّهِ أصبَح هادِيا

فاللَّهم ألحقنا في جنةِ الفردوسِ الأعلى .

---

(١) البخاري (٦٨) ، ومسلم (٤١٩) .

سلفية المنهج سلفية المواجهة

لما كان يوم الإثنين لأربع ليال بقين من صفر سنة إحدى عشرة من مهاجر رسول اللَّه ﷺ أمر رسول اللَّه ﷺ الناس بالتهيؤ لغزو الروم فلما كان من الغد دعا أسامة بن زيد فقال :

« سِر إلى موضعِ مقتلِ أبيكَ فأوطِئهم الخيلَ ، فقد ولَّيتُك هذا الجيشَ ، فأغرِ صباحًا على أهلِ أبنى ، وحرِّق عَليهم ، وأسرع السير تسبق الأخبارَ ، فإن ظفرك اللَّهُ فأقلِلِ اللبثَ فِيهم ، وخُذ معك الأدلّاءَ ، وقدِّم العيونَ والطلائعَ أمامَك » .

فلما كان يوم الأربعاء بدئ برسول اللَّه ﷺ الوجع فحم وصدع ، فلما أصبح يوم الخميس عقد لأسامة لواء بيده ثم قال :

« اغزُ بسم اللَّهِ في سبيلِ اللَّهِ ، فقاتلِ مَن كفَرَ باللَّهِ » .

فخرج بلوائه معقودا فدفعه إلى بريدة بن الحصيب الأسلمي ، وعسكر بالجرف فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار إلا انتدب في تلك الغزوة ، فيهم : أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن زيد ، وقتادة بن النعمان ، وسلمة بن أسلم بن حريش ، فتكلم قوم وقالوا : يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين ؟ فغضب رسول اللَّه ﷺ غضبا شديدا ، وفخرج وقد عصب على رأسه عصابة ، وعليه قطيفة ، فصعد المنبر ، فحمد اللَّه وأثني عليه ، ثم قال :

« أما بعدُ إيُّها الناسُ ، فما مقالةٌ بلغتني عن بعضِكم في تأميري أسامةَ ؟ ولئن طعنتُم في إمارتي أسامةَ لقد طعنتُم في إمارتي أباه مِن قبلِه ، وأيم اللَّهِ إن كان للإمارةِ لخليقًا ، وإن ابنه من بعدِه لَخَليقٌ للإمارةِ ، وإن كان لمن أحبِّ

الناسِ إلي ، وإنهما لمخيلان لكل خيرٍ ، واستوصوا به خيرًا ، فإنَّه من خيارِكم » .

ثم نزل فدخل بيته وذلك يوم السبت لعشر خلون من ربيع الأول ، وجاء المسلمون الذين يخرجون مع أسامة يودعون رسول اللَّه ﷺ ، فجعل يقول : « أنفذوا بعثَ أسامةَ » .

فلما كان يوم الأحد اشتد برسول اللَّه ﷺ وجعه ، فدخل أسامة من معسكره ، والنبي مغمور ، فطأطأ أسامة فقبله ، ورسول اللَّه ﷺ لا يتكلم ، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعهما على أسامة ، قال : فعرفنا أنه يدعو له ، ورجع أسامة إلى معسكره ثم دخل يوم الاثنين وأصبح رسول اللَّه مفيقا ، صلوات اللَّه عليه وبركاته ، فقال له :

« اغدُ على بركةِ اللَّهِ » .

فودعه أسامة وخرج إلى معسكره ، فأمر الناس بالرحيل ، فبينا هو يريد الركوب إذا رسول أمه أم أيمن قد جاءه يقول : إن رسول اللَّه يموت ، فأقبل وأقبل معه عمر ، وأبو عبيدة ، فانتهوا إلى رسول اللَّه ﷺ وهو يموت ، فتوفي ﷺ يحبها ويرضاها حين زاغت الشمس يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول[١] .

وكان أسامة بن زيد يقول : أمرني رسول اللَّه ﷺ أن أغير صباحا ، ثم أمر أبو بكر أن يبعثوا بعث أسامة بن زيد فقال له الناس : إن العرب قد انتقضت عليك ، وإنك لا تصنع بتفرق المسلمين عنك شيئا ، قال : والذي نفس أبي بكر بيده لو ظننت أن السباع أكلتني بهذه القية لأنفذت هذا البعث الذي أمر رسول اللَّه ﷺ بإنفاذه ، ثم قال أبو بكر لأسامة : إن تخلف معي عمر بن

(١) الطبقات (٢ / ١٩٠) (٤ / ٦٧) ، كنز العمال (٣٠٢٦٦) ، تاريخ دمشق (٢ / ٥٥ ، ٥٦) سيرة ابن هشام (٤ / ٦٤ - ٦٦) .

الخطاب فافعل ، فأذن له أسامة ، فتخلف عمر مع أبي بكر ، ومضى أسامة حتى أوطأهم ثم رجع ، فسمع به المسلمون فخرجوا مسرورين بقدومه ولواؤه معقود حتى دخل المسجد فصلى ركعتين ، ثم دخل بيته ولواؤه معقود[١] .

وإن السير على درب السنة لا يظن به المهلكة بل هو النجاة ، ولو عاكَسَتْ أو خالفت نظرة الناس فنظر الناس مهما كان قاصرا ، وعندما يكون مخالفا للشرع فهو أشد بعدًا عن الوصول للصواب فاتباع السنة أقصر الطرق للوصول إلى المطلوب واللّه الموفق للسداد .

مسلم فقير خير من كافر غني !

لما أخذ أبو موسى الأشعري الهرمزان[٢] بعث به في وثاق إلى عمر بن الخطاب مع أنس بن مالك ، فسار به أنس ، فلما قرب إلى المدينة كتب إلى عمرَ وخبّره بحاله ، فكتب إليه عمر : أن عظموا أسيركم ، وأدخلوه المدينة على هيئة جميلة . فأدخل المدينة وعليه الديباج ، وفي وسطه منطقة من ذهب ، وعليه قلائد من ذهب مرصعة بالجواهر ، فلما دخلوا به على عمر قام ابن ذي النمر الخزاعي فقال : يا أمير المؤمنين إن الناس إلى ذم المحسن أقرب منهم إلى ذم المسيء ، وإن واليا خير وال يأخذ منا الحق وأغنى ما نكون عنه ويعطينا أحوج ما نكون إليه ، أسد بالنهار ، راهب بالليل ، يأكل طعام أزهدنا ، ويلبس ثياب أفقرنا ، يقاتل قتال الصعلوك ، ويسوس سياسة الملوك ، فجزاك اللّه عنا فيه خيرا ، وجزاه عنا فيك خيرا ، ثم أنشأ يقول :

قدمنا المدينةَ بالهرمزان   عليه القلائِدُ والمنطقة
يزف إليك كزفِّ العروسِ   على بغلةٍ سهوةٍ معنقة

---

(١) الثقات لابن حبان (٢ / ١٥١) .

(٢) كان من ملوك الفرس ، وأسر وأسلم على يد عمر بن الخطاب .

قد أنزله اللَّه مِن حصنِه على الحكمِ يرجوك أن تعتِقَه
وذا الأشعري لنا والدٌ وأمٌّ بنا برةٌ مشفقة
تهيئ المهاد لأولادِها وتنقِض عَن لُطفها المرفقة
ترى الوجه مِنه طليقًا لنا ونلقاه بالأوجهِ المشرقة
فلسنا نريدُ به غيرَه عليه الجماعة مستوسِقة
فلا تشمتَنَّ بنا حاسدا رماه بأسهمِه المفرقة

قال : فأشرق وجه عمر سرورا بكلامه[1] .

النفوس مذاهب

اختلفت مذاهب الناس حتى في الفرح والسرور فهذا سروره وفرحه في تحصليه للعلم الشرعي حتى يقول :

سهري لتنقيحِ العلومِ ألذُّ لي من وصلِ غانيةٍ وطيبِ عناقِ
وتمايلي طربا لحل عويصةٍ أشهى وأحلى من مدامةِ ساقي
وصريرُ أقلامي عَلى أوراقِها أحلى مِن الدوكاءِ والعُشّاق
وألذُّ مِن نقرِ الفتاةِ لِدُفِّها نقري لألُقى الرَمل عَن أوراقِي
يا مِن يحاولُ بالأماني رُتبتي كم بينَ مستغلٍ وآخرَ راقي
أأبيتُ سهرانَ الدُّجى وتبيتُه نومًا وتبغي بعدَ ذلك لِحاقي

وثان فرحته مع صديقه وجلسته معه يبثه أشجانه وخواطره حتى يقول قائلهم : وإني مخبرك عن صاحب كان من أعظم الناس في عيني ، وكان رأس ما أعظمه في عيني صغر الدنيا في عينه ، كان خارجا من سلطان بطنه ؛

(١) تهذيب الكمال للمِزّي (١٥ / ٤٤٦) .

فلا يشتهي ما لا يجد ، ولا يكثر إذا وجد ، وكان خارجا من سلطان لسانه ، فلا يقول ما لا يعلم ، ولا ينازع فيما يعلم ، وكان خارجا من سلطان الجهالة ، فلا يقدم أبدا إلا على ثقة بمنفعة[١] .

وثالث فرحته مع معصيته يقول قائلهم في الخمر :

وكأسٍ شربتُ على لذَّةٍ وأخرى تداويتُ منها بها

هكذا يقر من معصيته لمعصيته والعياذ باللَّه فرحًا بهذا الوباء .

ورابع يكاد يطير فرحًا إذا نجا من مهلكة أو حادث وما علم أن هذا ابتلاء :

كم نطلُب اللَّهَ في ضرٍّ يحِلُّ بنا فإن تولَّت بلايانا نَسيناه
ندعوه في البحرِ أن ينجي سفينَتَنا فإن رجعنا إلى الشاطئ عصينَاه
ونركبُ الجوَ في أمنٍ وفي دعةٍ وما سقَطْنا لأنَّ الحافظَ اللَّه

وخامس : لذته وفرحه وسروره في كثرة طعامه وشرابه ، وتعدد صنوفه وأنواعه وقد ورد :

خلق اللَّهُ للحروبِ رجالًا ورجالا لقصعةٍ وثريدِ

وسادس : فرحه بنصرة الإسلام وعز الموحدين وارتفاع راية لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه . وغيرهم في أفراحهم وأتراحهم مذاهب شتى .

وأخيرًا خير الهدي هدي محمد صلى اللَّه عليه وسلم ، فاضبط مؤشر فرحك على ما ورد عليك في حياة نبيك صلى اللَّه عليه وسلم فهذا مسك الختام والحمد للَّه رب العالمين .

* * *

(١) وصف الصديق لابن المقفع .

الفهرس

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية